

المبحث الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ - قضية حياة أو موت:

يقول أ/ فتح الباب: «لم يكد المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ ينصرفون إلى تنظيم حياتهم في الحياة آمنين مطمئنين حتى تواردت أنباء عيونهم وأرصادهم عن احتشاد المشركين من قريش لقتالهم بتحريض من بني قينقاع وبني النضير الموتورين الذين قاموا بالدور الرئيس في تجميع شمل القبائل المعادية للانقضاض على محمد ﷺ وأصحابه بالمدينة؛ أخذًا بالثأر وقضاء على الدعوة التي هدمت مصالحهم التجارية والسياسية وأصبحت تنتشر في الجزيرة العربية يومًا بعد يوم حتى لتوشك أن تحاصر قريشًا وحلفاءها ثم تقضي عليهم، وكانت غزوة الخندق التي نصر الله فيها المؤمنين نصرًا عزيزًا، وباء المشركون واليهود بخذلان مبین.

وقد سبق أن ذكرنا في تحليل هذه الغزوة ما كان من أمر يهود بني قريظة بعد تفكير الأحزاب في الانسحاب، إذ نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ والمسلمين، وكادوا أن يُعرّضوهم لهزيمة مرة لولا ثبات المؤمنين وكشفهم في الوقت المناسب خيانة اليهود، فليس من الحكمة أن ينجو هؤلاء من العقاب بعد فرار الأحزاب وعودة النبي ﷺ وصحبه منتصرين إلى ديارهم، لا ردعًا وزجرًا لهم فحسب بل تأمينًا للوطن والعقيدة.

فهم لا شك عائدون إلى مؤامراتهم بما جُبلوا عليه من طباع الحقد والجحود والخيانة ومن ثم أهدر رسول الله ﷺ دماء بني قريظة وأمر أن يتجهز المسلمون لمهاجمتهم، والقضاء عليهم، ونادى مناديه: «مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّئُ الْعَصْرَ إِلَّا بِنِي قُرَيْظَةَ».

وهرع المسلمون إلى الجهاد، واجتمعوا عند ديار اليهود فوجدوهم يهجون النبي ﷺ ويلقون فاحش القول في نسائه، وهم معتصمون بقلاعهم الحصينة، وأقبل النبي ﷺ يتحداهم ناعيًا إياهم بإخوان القردة، ناعيًا عليهم أن الله أخزاهم وأنزل بهم نقمته، فلم يجترؤا على الرد عليه.

ثم حاصرهم المهاجرون والأنصار حصارًا دام خمسًا وعشرين يومًا وليلة تخللها بعض التراشق بالسهم والحجارة حتى يش اليهود وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة ولا حول لهم ولا قوة في مواجهة عزمات فولاذية أرهفها الإيمان ولن تميد عما انعقدت عليه مهما طال أمد الحصار حتى يستسلم بنو قريظة.

هنالك انخلعت قلوب أولاد الأفاعي - كما وصفهم المسيح عليه السلام - وغشاهم الذعر، فاستجاروا بأبي لبابة من أصحاب الرسول ﷺ وكان من الأوس حلفائهم وبكت نساؤهم بين يديه، فنصحهم أن يتزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وانتهت مشاوراتهم إلى التسليم فعرضوا على النبي ﷺ أن يخرجوا إلى أذرعات تاركين أموالهم فأصر على أن يستسلموا بلا قيد ولا شرط، واستشفع فيهم الأوس فعرض

عليهم أن يحكموا واحداً منهم يختاره اليهود ويرتضي الطرفان بقضائه، فاختاروا سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان قد حضر نقضهم عهد المسلمين وإطلاقهم أفبح الهجاء في النبي ﷺ، وحذّرهم فلم يتعظوا، فأمر بأن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح، فأذعنوا، فحكم بأن يُقتل المقاتلون منهم، وتقسم الأموال، وتسبى الذرية والنساء.

ونفذ الحكم، وهو قصاص عادل، وجزاء من جنس العمل، فلو أن قريشاً وحلفاءها قد انتصروا بخيانة بني قريظة لأجهزوا على المسلمين ولم يُبقوا منهم أحداً، وهم لا شك فاعلون ذلك لو أُتيحت لهم الفرصة، فما فعله المسلمون كان أمراً لا بد منه، وكان دفاعاً عن الحرية والأمن والعقيدة، كان قضية مصير». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢٢٣-٢٢٥].

٢ - الحزم مع أهل الغدر والخيانة:

يقول الشيخ عبيد: «بنو قريظة قبيلة يهودية تحركت بكل ما لديها ولم ترع ذمة الجوار ولم تحافظ على شروط المعاهدة المبرمة مع رسول الله ﷺ ومعهم والتي تنص على «وجوب التزام الفريقين بالتعايش السلمي والتعهد بعدم اعتداء أحدهما على الآخر»، وكان المفروض طبقاً لهذه المعاهدة أن ينضم يهود بني قريظة إلى جانب المسلمين للدفاع عن المدينة عندما أحاطت بها جيوش الأحزاب، لكن الذي حدث من بني قريظة غير ذلك فقد أعلنوا انضمامهم إلى الغزاة المعتدين في تلك الأيام الرهيبة التي كان فيها مصير كل الكيان الإسلامي في مهب العاصفة، وهذا غدر من بني قريظة بحلفائهم المسلمين.

لكن اليهود لم يبالوا بشرف الكلمة، ولا بتوقيعهم على معاهدة التحالف، ولا مقدرين لما يترتب على ذلك الغدر الشنيع من نتائج خطيرة أساسها الغدر والخيانة في حالة الحرب، ثم هم لم يستجيبوا لأحد زعمائهم «كعب بن أسد» الذي ذكّرهم «بأنهم لم يروا من النبي ﷺ وأصحابه إلا الصدق والوفاء بالعهد والوقوف بشرف عند الكلمة التي أعطوها للمسلمين في عهد التحالف»، لكن من الذي يستجيب لهذا النداء العاقل لواحد منهم، لكن الأحداث دائماً كانت تدل على خبث معدنهم وعلى ما تأصل فيهم من لؤم ونذالة، وأن العهود والمواثيق عندهم لا قيمة لها ولا احترام، ولقد أراد الرسول ﷺ وهو الكريم السميع الوافي بالعهد محاولة إصلاح اليهود فأرسل إليهم وفداً بقيادة سعد بن معاذ رضي الله عنه فذكّرهم ونصحهم وحذّرهم مغبة الإصرار على السير في طريق الغدر والخيانة، إلا أنهم ردوا عليه ردّاً قبيحاً وأعلنوا أنهم لن يتراجعوا عن مخالفتهم للأحزاب، وأنهم لا يعرفون محمداً ﷺ، وبالتالي فليس هناك عهد ولا حلف، ثم إنهم بدأوا يستعدون للهجوم على المسلمين من الخلف طبقاً للخطة المتفق عليها مع الأحزاب.

إلا أن الحق ﷻ أفسد نخطيط هؤلاء جميعاً: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

إذا هل ينتهي الموقف دون مساءلة اليهود على ما ارتكبهوه؟

المقروض أن تكون هناك تصفية حساب، وهذا ما يرشد إليه العقل السليم فلا بد من محاسبة يهود بني قريظة على خيانتهم وغدرهم؛ لأنهم بدل أن ينضموا مع المسلمين ليدافعوا عن المدينة كان العكس منهم حاولوا ضرب المسلمين من الخلف.

بهذا المسلك وبهذا الأسلوب فإن بني قريظة يمثلون جناحًا عسكريًا ضد المسلمين في وقت الحرب، وهي جريمة حربية وخيانة عظمى، وإذا كان الأحزاب قد ولوا مدبرين إلى مكة وهما «قريش وغطفان»، فإن الجناح الثالث وهم اليهود سجلوا بصنيعهم أخس وأشنع جريمة في تاريخ الخيانة والغدر.

لهذا خرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه لم يستريحوا بعد». [غزوة الأحزاب لعبد ٤٨-٤٩].

ويقول عميد/فرج: «لعب اليهود دورًا خطيرًا خلال غزوة الخندق... دورًا كاد يؤدي بالمسلمين وبالإسلام لولا رعاية الله تبارك وتعالى لدينه ولرسوله وللمؤمنين به.

لقد نكثوا عهدًا بينهم وبين رسول الله ﷺ في وقت لم يجدوا فيه من المسلمين غير الوفاء العظيم الذي اعترف به كعب بن أسد في قوله لحبي بن أخطب: «فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء»، والذي دعا بعضًا منهم إلى نصح البعض الآخر وحيي يراودهم على نقض العهد: «إذا لم تنصروا محمدًا فدعوهم وعلوهم».

لقد نقضوا الميثاق بينهم وبين النبي ﷺ، وحسبوا فرصة للقضاء عليه فتصبح المدينة لهم، وكان نقضهم للعهد وانضمامهم للأحزاب هو الثغرة التي أتي منها المسلمون، كانوا في مواقعهم نقطة الضعف التي يخشى منها المسلمون أن ينزل بهم أمر يكرهونه ولم يعد جوارهم مأمونًا، ولا سلمهم مكفولًا، ولا وعدهم مضمونًا.

وكان لا بد من اتخاذ موقف حازم معهم حتى تأمن المدينة شرهم، وكان لا بد من وجهة نظر الأمن العسكري تأمين مستقبل المسلمين من شرهم وغدرهم، فلم يكن من المقبول أن يتركوا في المدينة إلى جوار المسلمين يطلعون على أسرارهم ويذيعونها لدى أعدائهم، ويبدلون المحاولة وراء الأخرى لتحريك القوى ضدهم.

إذن كان من الضروري مراجعة الحساب معهم، كما قال إميل درمنجم صاحب كتاب (حياة محمد): «إنه كان من الصعب ألا يصفي المسلمون حسابهم مع بني قريظة، اليهود الذين انحازوا إلى العدو أيام غزوة الأحزاب». [العبرة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٩٩].

ويقول أ/ دويدار: «على أن هذا الغدر الذي أوشك أن يكون فيه فناء دولة الإسلام، لم يكن له من سبب يدفع إليه إلا الحفيظة الكامنة في نفوس اليهود على المسلمين، فقد كان المسلمون مقيمين على الوفاء والصدق في عهدهم لبني قريظة، حتى لقد كان هذا الوفاء والصدق هو الحجة البالغة، التي حاول كعب

ابن أسد أن يحتج بها على حيي بن أخطب، وهو يرأوده على نقض العهد مع رسول الله ﷺ، إذ يقول له: «وَيْحَكَ يَا حَيٍّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرْ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً!»، فلو أنه كان هناك من جانب المسلمين سبب يدعو بني قريظة إلى هذا الغدر، لكان لهم شيء من العذر فيما فعلوا، فكيف وهو الغدر الذي يجزي على الصدق والوفاء...؟ وكيف وهو الغدر الذي كان فيه القضاء على دولة بأكملها، وعلى دين الحق الذي أرسل به خاتم النبيين ليظهره على الدين كله...؟ وكيف وقد كان العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ يقضي عليهم أن يدافعوا مع المسلمين عن مدينتهم، لا أن يخونوهم ويغدروا بهم في أصعب الظروف وأشدّها حرجاً...؟

الحق أن عمل بني قريظة هذا لم يكن نقضاً لعهودهم وحسب، بل كان غدرًا وخيانة في وقت معًا، حتى لقد استنكره رجال من رجالهم وهم يتحاورون فيما جاءهم به حيي بن أخطب، فقالوا: «إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا مُحَمَّدًا فَدَعُوهُمْ وَعَدُّوهُمْ»، ثم هو فوق ذلك غدر ديني، وخيانة سافلة؛ لأنه طعن من الخلف لمن أدار إليك ظهره وهو واثق بك، مطمئن إلى أمانتك ومروءتك.

ماذا يكون جزاء الذين يغدرون هذا الغدر في عرف القانون الدولي؟ وماذا يكون جزاؤهم في عرف الدين والحق والعدالة المطلقة؟ أيكون من الظلم أن يُوقع بهم جزاء مثل ما فعلوا، وأن يصنع بهم ما كانوا يريدون أن يصنعوا بغيرهم؟ لا شك أن هذا جزاء طبيعي تفره الأديان كلها، وتقره قوانين الحرب قديمها وحديثها، ويقره منطق الحق والعدل والمروءة، فهل على المسلمين من حرج إذا هم حاصروا هؤلاء الغادرين حتى أسلموا لهم، ثم أبادوهم كما كانوا يريدون أن يبيدوهم؟ وهل كان من الممكن أن يأمن المسلمون جانب اليهود بعد ذلك، وأن يتركوهم جاثمين إلى جوارهم يطلعون على أسرارهم ويذيعونها بين أعدائهم؟ وهل كان من الحزم أن يخرجوهم كما أخرجوا بني النضير من قبل، فيذهبوا في الأرض طلقاء أحرارًا، يؤلبون عليهم القبائل ويحزبون الأحزاب، ويجمعون لهم الجموع ليغزوهم في عقر دارهم، كما فعل بنو النضير في غزوة الخندق، وهي الغزوة التي أوشكت أن تعصف بالإسلام وأهله، والتي لم ينجح المسلمون منها إلا بمعجزة؟

لقد كان من الطبيعي جدًّا أن يصفى المسلمون حسابهم مع أولئك الخونة الغادرين، وأن يكيلوا لهم بنفس الكيل الذي أرادوا أن يكيلوا به لهم». [صور من حياة الرسول ﷺ للدويدار ٤٣٣-٤٣٤].

٣ - ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد:

يقول الشيخ الغزالي: «صعد الرسول ﷺ بالأمر وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه، روى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُصَلُّوا صَلَاةَ الْعَصْرِ حَتَّى تَأْتُوا بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَغَرَبَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَأْتَوْهُمْ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَدْعُوا الصَّلَاةَ

فَصَلُّوا؛ وَقَالَتْ طَافِقَةٌ: وَاللَّهِ إِنَّا لَنَفِي عَرِيْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا عَلَيْنَا مِنْ إِثْمٍ، فَصَلَّتْ طَافِقَةٌ إِيَّانَا وَاحْتِسَابًا، وَتَرَكْتُ طَافِقَةٌ إِيَّانَا وَاحْتِسَابًا، وَلَمْ يَعِبِ النَّبِيُّ ﷺ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٩-٨/٤].

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد بريء سليم، والناس غالبًا أحد رجلين: رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها، ورجل يتبين حكمته ويستكشف غايتها، ثم يتصرف في نطاق ما وعى من حكمته وغايتها ولو خالف الظاهر القريب.

وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه، سواء أصاب الحق أو ندد عنه، ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال، وذلك مذهب البخاري وغيره، وهذا - عندي - أدنى إلى الصواب. إن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم في الحياة، بل إنه لا يفهم دينه فهمًا صحيحًا إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب.

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى، فيها الفرائض وفيها النوافل. ولا بد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة، فالرجل الذي يستكثر من أعمال التطوع في الوقت الذي يهمل فيه فرائض لازمة رجل ضال. والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم.

وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها، أو الزلالية وحدها، بل لابد من استكمال جمل متنوعة من الغذاء، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهكه أو تقتله؛ فكذلك الدين، إنه لا قيام له في كيان الفرد أو في صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملونة، تصون حياته وتضمن عافيته ونهاه. وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة، فلا يشغله واجب عن واجب، وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب!

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغته بني قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقووا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة فلا ينبغي أن يشغل المسلم عنه ولو بالصلاة، فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال.

ونستطيع - على ضوء هذا الإرشاد النبوي - أن نحكم على مسالك المسلمين اليوم، إنَّ المدرس الذي ينشغل عن تعليم تلامذته، والتاجر الذي ينشغل عن تمييز ثروته، والموظف الذي ينشغل عن أداء عمله، لا يقبل الله من أحدهم عذرًا أبدًا في تضييع هذه الفرائض، ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة، أو قرأ ألف آية، أو عدَّ أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة، كما يفعل جُهَّال المتصوفة.

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب، وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها وفقرها وفوضاها.

والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شيء، ولا يزاحمها على وقتها عبادة كما رأيت». [فقه السيرة للغزالي ٣٢١-٣٢٣].

٤ - اليهود أصحاب مكر وفتنة وغدر:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما نطقت به أحداث الصفحات القليلة الماضية، وإذا كان الأمر كذلك فلا يطمأن إليهم، ولا يؤمن جانبهم، ولا يوثق بعهد يقطعونه على أنفسهم، أو يعطونه لغيرهم. إن الذي يدفعهم لإشعال نار الفتنة وتأجيجها، وتسعير أوارها هو الحقد على الرسول ﷺ والحسد الذي أكل قلوبهم، وأثار حفيظتهم، فأعماهم عن الخير ورؤيته، وحال بينهم وبين الرأي السديد، والفكر الصائب، والموقف السليم.

إنهم يحرضون القبائل الوثنية المشتركة على الفئة الإسلامية المؤمنة الموحدة، ويتعاونون مع كل عدو لها ويغيي شرًا للمسلمين.

فها هو ذا حبي بن أخطب يقود وفدًا من اليهود للاتصال بالقبائل لحرب الرسول ﷺ، ولم يتعظ بما حدث له ولقومه بني النضير من تكتيف الرسول ﷺ لهم لضرب أعناقهم، ثم عفا عنهم، كان الأولى بحبي أن يذكر فضل الرسول ﷺ عليه ويكف عن معاداته ومعاداة صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، ولكن صاحب الفتنة الحاقد الحاسد لا يتوقف عنها؛ لأنها تغلغل في أعماقه، وفي شرايينه، فقام بما قام به؛ ولقي جزاءه العادل في نهاية المطاف.

ومن دراسة التاريخ اليهودي تجد خصلة الحقد والحسد متوافرة عند الغالبية العظمى من اليهود، وقلما تجد يهوديًا لا يتصف بالحسد والحقد والكره للإسلام والمسلمين». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٣].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «فقد يُظهرون مسألة الناس، وهم يبحثون في الخفاء عن وسائل تدميرهم للعمل بها، في وقت يُطمئنون الناس أنهم يريدون السلم والسلام.

تأمل كيف يرسل زعيم بني قريظة من يفاوض رسول الله ﷺ على الصلح وهو لا يتوقف عن التفكير في كيفية الانقضاض على المسلمين بخديعتهم، ويقترح على اليهود أن يشنوا هجومًا على المسلمين في يوم السبت، يوم عيد اليهود، وقد مُنعوا من القتال فيه، بل من الصيد والعمل، كما اختاروا هذا لأنفسهم، ولكنهم لم يصبروا على ذلك، فجعلهم الله قردة.

إنه يقول لهم: إن المسلمين الآن غير متأهبين للقتال؛ لأنهم يعلمون أننا لا نقاتل يوم السبت، فهيا نفاجئهم بهجوم ساحق، ولكنهم جنبا قد انهاروا تمامًا، لا قدرة لهم على القتال، فعارضوا كعب بن أسد لا لحفاظهم على سبتهم، وإنما لأن الخوف قد أخذ عليهم كل مأخذ، ودب الذعر في نفوسهم فلا يقوون على مجابهة المسلمين». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦١-٦٢].

٥ - ما يستفاد من أحداث الحصار:

١ - الجزء العادل: إن بني قريظة قد نقضوا العهد مع المسلمين، وغدروا بهم، وأرادوا أن يطعنوا الدولة التي حمت أموالهم ودماءهم وأعراضهم سنين عدة، فمن المنطق العادل أن ينالوا العقوبة التي يستحقونها جزاءً وفاقاً لما اقترفوه.

٢ - أن الأمر بقتال بني قريظة كان حياً وليس باجتهاد أحد، يدل ذلك على ذلك حديث جبريل عليه السلام المتقدم، جاء في بعض ألفاظه: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَسِيرَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَمَزَلَزِلْ بِهِمْ حُصُونَهُمْ.

٣ - أن يكون قتال بني قريظة بوحى من السماء يدل ذلك هذا على خطورتهم، وضرورة الإسراع في علاجهم، وعدم التواني في عقوبتهم، والسير إليهم وحرهم، والقضاء عليهم قبل أن يستفحل خطرهم، ويعصفوا بكيان الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وإن كانوا قد فشلوا في محاولتهم مع الأحزاب، فقد يدبرون أمراً آخر، فينبغي والحالة هذه ألا يهملوا وأن يعاقبوا.

٤ - إن الفرصة مواتية للسير إليهم ومحاربتهم والقضاء عليهم، فليس لهم نصير، فقد تخلى عنهم الأحزاب وانسحبوا غاضبين منهم، غير مطمئنين لهم، بسبب حيلة نعيم بن مسعود رضي الله عنه، إذ فرق وحدة الأحزاب، ولم يعد الأحزاب يثقون ببني قريظة، وليس عندهم استعداد لمساعدتهم.

أما معنويات بني قريظة فقد كانت منهارة، إذ انسحبت الأحزاب، وبقوا هم وحدهم في الميدان، ولا طاقة لهم بالوقوف في وجه الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، فهم في حيرة من أمرهم، قد اضطرب أمرهم، وارتاعت نفوسهم، وسيطر عليهم الذعر والخوف. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٤٦/٢ - ٤٧].

٦ - اليهود أكثر الناس تفلتاً من القيم والأخلاق:

يقول د/ أبو فارس: «حينما اقترب علي بن أبي طالب رضي الله عنه من حصون بني قريظة واجهوه بشتى رسول الله ﷺ، ونالوا من أزواجه أمهات المؤمنين، بكلام لم يصرح الرواة بألفاظه، لسوئه وفحشه وقبحه، إذ نزهوا أنفسهم وألستهم أن يتفوهوا بالكلام ولو كانوا ناقلين، ولما راجعهم رسول الله ﷺ عما تفوهوا به أنكروا أنهم قالوا ما سألهم عنه، ونفوا نفيًا مؤكدًا ما نسب إليهم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كذب اليهود ونفاقهم وجبنهم وخستهم، وعدم تحملهم المسؤولية عن تصرفاتهم، فقد شعروا أن الكلام الذي تفوهوا به يترتب على قائله تبعة ومسؤولية وعقوبة، فتخلوا عنه.

وانقلبوا على القور يتأدبون في الحديث مع رسول الله ﷺ، ويلاطفونه ويصطنعون الحكمة في مخاطبته، بل ويدَّكرونها بها، لا لأنهم أهلها، بل لأنهم يحققون من ورائها مصلحة لهم، أو يدفعون مضرة تحيق بهم، تأمل قولهم لرسول الله ﷺ وهو يخاطبهم ويحاسبهم على بداءة ألستهم: يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا.

إنهم يذكرون بالقيم والأدب وهم أكثر الناس تفلنًا من القيم، وأبعد الناس عن الحكمة والأدب، وأساليبهم في مواجهة الرسول ﷺ ومخاطبته قبل حربه الساخنة معهم تدلّك على خبايا نفوسهم، وسوء أخلاقهم، وبذاءة لسانهم.

ويريك كلامهم لسعد بن معاذ ؓ حين التقى بهم يوم الأحزاب، مدى حرصهم على الألفاظ البذيئة، والأقوال الفاحشة.

لقد قالوا الرسول الله ﷺ هذه العبارة: يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا، من قبيل الانحناء أمام العاصفة، حتى تمر، ثم يعودون إلى عتوهم وتمردهم وسوء أخلاقهم، إنهم يتلونون كالحرباء من أجل مصالحهم. وما أجمل ما ذكره الشيخ الغزالي تعليقًا على عبارتهم: يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا. «هذه خلال اليهود، يَسْفَهون إذا أَمِنُوا، وَيَقْتُلُونَ إذا قَدَرُوا، وَيَذْكُرُونَ النَّاسَ بِأَمْثَلِ الْعُلَيَّا إِذَا وَجَلُوا؛ لِيَسْتَفِيدُوا مِنْهَا وَحَدَّاهُمْ لَا شَيْءَ آخَرَ.

أما العهد، فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده». [فقه السيرة للغزالي ٣٣٩].

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٥٣/٢-٥٤].

ويقول د/ طنطاوي: «وهكذا اليهود في كل زمان ومكان عندما يظنون أنفسهم في أمان يَسْبُون ويتطاولون، وعندما تواتيهم الفرصة يقتلون ويفجرون، فإذا ما ضاق الخناق حول رقابهم يتباكون ويتذللون، فهم يتلونون لكل حالة بالشكل الذي يظنونه نافعًا لهم، أما العهد والمواثيق والقيم الخلقية والمعاني الإنسانية فلا حساب لها في ميزانهم». [ينو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٩٩].

ويقول الشيخ عبيد: «بدأ اليهود في التلطف والوداعة وأنكروا أنهم شتموا النبي ﷺ أو تطاولوا على نسائه، وكانوا يتكلمون في ليونة الأفاعي لأن قوهم لين ومحاولون الإطراء على النبي ﷺ ويقولون: «يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا»، وقد ظنوا أن ذلك سيساهم في تخفيف عقوبتهم العظمى، لقد أحاط باليهود خطيئتهم وحق بهم المكر السيء وتبددت أحلامهم العريضة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وهم وإن تظاهروا باللين والوداعة في هذا الموقف لكنهم كالأفاعي السامة الغادرة تتظاهر بالبراءة حتى تتمكن وتبدي مظهرها الناعم اللين حتى تقتل من يداعبها». [غزوة الأحزاب لعبيد ٥١-٥٢].

٧ - الدعوة إلى التخلص بالكرم:

«حيث مؤن سعد بن عباد ؓ الجيش الإسلامي بالطعام، وذلك من التمر، فكانت تحمل أحمال التمر إلى معسكر المسلمين، وقد كان سعد ؓ مشهورًا بالكرم الفياض». [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٦١/٦].

٨ - إعنات اليهود في الحق والعدل:

يقول د/ حبيشي: «ومن موقف كعب وعمر بن سعدى، وما عرضاه على اليهود من بني قريظة، تعلم كمًا هائلًا من خلائق اليهود، تلزمهم جميعًا حتى أعتنوا الحق والعدل، وأرهقوا الشيخين من علمائهم على مشهد من خزى حبي وصغاره حين دارت على مكائده الدوائر.

ومن المضحكات المبكيات أن صاحب كتاب اليهود في بلاد العرب أخذ يعد إعنات اليهود لشيخهم، وإرهاقهم للحق والعدل ضربًا من الشجاعة والثبات على المبدأ، ولو كان ثمن ذلك الموت». [رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٤٥].

٩ - فشل المفاوضات اليهودية مع الرسول ﷺ:

يقول د/ حبيشي: «أرسل اليهود إلى النبي ﷺ رجلاً منهم يقال له: نباش بن قيس، يعتقدونه محاورًا جيدًا، فجاء إلى رسول الله ﷺ يطلب إليه أن يُخرجهم على ما خرج عليه بنو النضير، يأخذون النساء والأموال ويتركون السلاح والأرض لأصحابها.

ورفض النبي ﷺ هذا العرض حيث إنه لا يكافئ خيانات اليهود من بني قريظة، فعاد نباش يعرض عرضًا آخر، وهو: أن يجلبهم النبي ﷺ عن الأرض ويتركون السلاح والأموال، يأخذون نساءهم وذرايعهم.

ورأى النبي ﷺ أنه لو وافقهم على ذلك يكونون قد كسبوا الجولة مرتين: أولاهما: أنهم قد أحدثوا في صفوف المسلمين يوم الخندق ما أحدثوه، ولو أمكنهم الله من رقاب المسلمين ما تركوا منهم على الأرض حيًّا يتنفس.

علم النبي ﷺ ذلك من خلائقهم التي ما يزال التاريخ يسطرها إلى اليوم، على نحو ما تراه ونراه على الأرض التي بارك الله فيها حول المسجد الأقصى.

وثانيتهما: أن النبي ﷺ لو وافق نباشًا على مقترحه وعفا وأصلح، لم يأمنهم أن يخرجوا إلى سائر العرب يؤلبونهم مرة أخرى على النبي ﷺ وعلى المسلمين، ولم يكن النبي ﷺ قد استفاد من تجاربه (وحاشاه).

وقد علم النبي ﷺ إيجاعات هذه الجزئية من تساهله مع بني النضير وعفوه عنهم، فما كان منهم إلا أن ألّبوا عليه سائر العرب، وجمعوهم في معسكر واحد كاد يطيح بالمسلمين لولا أن الله سلم.

وما حديث حبي بن أخطب عنا وعنك ببعيد.

رفض النبي ﷺ مقترحات نباش كلها، ويبيّن له أن الأمر لله، وأنهم لا بد أن يتزلوا على حكمه، فعاد نباش إلى قومه بما توصل إليه من نتائج في مباحثاته مع رسول الله ﷺ.

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٤٢].

١٠ - براعة اليهود في استدراار العاطفة:

يقول د/ أبو فارس: «أنا لا أتصور أن أطفال اليهود قد خرجوا من تلقائهم ليكون في وجه أبي لبابة ﷺ، وإنما أشعر أن اليهود قد دبروا هذا فعلاً إذ رتبوا النساء والأطفال يستقبلون أبا لبابة ﷺ بالبكاء والعيول حتى يرق قلبه لهم، فيؤثر على ما يقوله من كلام، أو ما ينقله من قول أو ما يراه من رأي يشير به على رسول الله ﷺ».

ولقد استطاعوا بهذه الوسيلة أن يستدرجوه، وأن يستدروا عطفه ليصرح بها صرح به. فلا غرو إذاً أن نجد اليهود في العالم اليوم كيف يتمسكون حتى يتمكنوا، ويستدرون عطف العالم عليهم، حين يتظاهرون بالضعف، وأنهم قد ظلموا في التاريخ البشري الطويل، وبحاجة إلى الإنسان الذي يتمتع بالإنسانية الحقة حتى ينصفهم ويعطف عليهم.

ولقد استطاعوا بهذه الأساليب أن يستدروا عطف الناس، والشعوب، والدول في العالم، شرقاً وغرباً، فدفعوا إليهم مليارات من الدولارات وغير الدولارات، وساعدوهم بالسلاح والعتاد، على ظلم شعب كامل، فطردوه من أرضه، وسفكوا دمه، واستولوا على مقدساته». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٧٢/٢].

١١ - إذاعة سر من أسرار جماعة المسلمين خيانة:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما قرره أبو لبابة ﷺ، فاعتبر نفسه حين أباح سر اليهود بني قريظة أنه قد خان الله ﷻ ورسوله ﷺ».

إن الإسلام يرى أن الأمانة، ليست هي الأمانة المالية فقط التي يجب على الشخص أن يحافظ عليها إذا وضعت عنده، وأن يؤديها إلى أصحابها كاملة غير منقوصة، وإنما الأمانة هي كل ما استؤمن عليه الإنسان فهو أمانة، فإن تأسمن على سر من أسرار المسلمين، فهذا أمانة فلا يحل لك أن تضيع هذا السر فتضر أحداً من المسلمين، فكيف إذا كان السر يتعلق بمصلحة المسلمين عامة، وإفشائه يؤدي إلى مفسدة عظيمة، قد تهللك الحرث والنسل؟! وبعض الأسرار قد تعصف بكيان الدولة الإسلامية وأجهزتها، وتقوض أركانها.

وما دام الشرع قد أوجب على المسلم أن يحافظ على الأمانة وألا يفرط فيها، والأسرار نوع من الأمانات الكثيرة فالمحافظة أيضاً عليها واجبة، تدخل في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، والتفريط بذلك خيانة، وقد نهى الله تبارك وتعالى عن الخيانة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٧٤-٧٥، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٣٤٣-

١٢ - المؤمن صاحب ضمير حي:

يقول د/ أبو شهبة: «في قصة أبي لبابة ؓ نرى مبلغ قوة الإيمان، وتذكر القلب ويقظة الضمير من صحابة رسول الله ﷺ، الذي أدرك الخطأ وندم عليه قبل أن يتحرك من مكانه الذي هو فيه، والمتقون هم الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وسرعان ما يتوبون ويعودون إليه جل شأنه عودة سريعة، ومبلغ ما وصل إليه المجتمع الإسلامي حيثئذ من حياء من المعاصي والردائل، وتقدير للقيم الخلقية، والمعاني الروحية، واستهانة بالنفس والولد والمال في سبيل رضا الله ورسوله، وأن هذا المجتمع لم يصل إليه أي مجتمع متحضر إلى وقتنا هذا». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٤٠٨].

ويقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يربي أتباعه على تقوى الله تبارك وتعالى، وخشيته، والخوف منه، ومراقبته في السر والعلن؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ».

[الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي في الرقاق (٢٨٣٣)، ومسند أحمد ٢٨٤/ ٣٥ عن أبي ذر ؓ رقم ٢١٣٥٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: حسن لغیره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب فقد روى له مسلم في المقدمة].

والمسلم صاحب ضمير حي يقظ يراقب الله ﷻ، ولا يعني أنه لا يقع في المعصية، فقد يغفل فتزل قدمه، ولكنه إذا وقع في المعصية حاسبته نفسه اللوامة على ما وقع فيه من معصية، فنهض من كبوته، ولجأ إلى ربه، بالتوبة إليه والندم على ما كان منه.

أما صاحب الضمير الميت فإنه يستمرئ المعاصي، فإذا وقع في معصية من المعاصي، لم تلمه نفسه، ولم يصغ لأصوات الناصحين له، فازداد بُعداً عن ربه لكثرتها؛ لأنه إذا ذُكر لا يذكر ولا يتذكر، وإذا وعظ لا يتعظ، وإذا نُصح لا يتصح، بل يسدر في غيّه، ويظل - والعياذ بالله - يغرق في المعاصي حتى تغرقه وتهلكه، قد تبلد إحساسه، وغشي الران قلبه فغطاه، فحسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

تأمل كيف تتعلم من أبي لبابة ؓ صفاء القلب ونقاء السريرة، وسرعة العودة إلى الله، قد منَّ الله عليه بضمير حي لا يستمرئ المعصية بل يفر إلى الله بالتوبة والإنابة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٥-٧٦].

ويقول الشيخ أبو خوات: «والعبرة في هذه الحادثة أن أبا لبابة ؓ حين رق قلبه لهم فئسي وأشار إلى حلقة اعتبر هذا جريمة كبرى، وعمل ما عمل حتى أنزل الله توبته عليه وأخبرته بها أم سلمة ؓ فكيف نفعل الذنوب الثقالة ثم لا نشعر بألم نفسي أو وخز ضمير؟!»

بل إن الكثيرين منا يتباهون بذنوبهم، ويذكرونها بين زملائهم في زهو وافتخار، والكثيرون أيضاً إذا لم يذكروا ذنوباً فعلوها اختلقوا لأنفسهم ذنوباً وعرضوها على المجتمع؛ لأنهم يرون الاستقامة ضرباً من التأخر لا يليق بمن يعيش في هذا القرن.

مع أن إعلان الذنب والمجاهرة بالمعصية سبب في عدم عفو الله عن المجاهرين، ومن حقنا في هذا المقام أن نذكر قول رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاقِلٌ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ! عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ». [البخاري في الأدب (٦٠٦٩)].

لقد اختلف الناس عن أولئك الناس، وغيروا الطريق والسييل التي كانت من أسباب رعاية الله لهم ونصره وتأنيده، فغير الله ما بهم وصاروا في العالم كسقط المتاع، لا خطر ولا أثر، وفي الحق إنه ليخطر على بالي كثيرًا هذا التساؤل:

لماذا لا نؤلف مؤتمراً كبيراً تتعدد فيه اللجان المتخصصة التي تبحث في حياة المسلمين في عصر النبوة عاداتهم ومعاملاتهم مع بعضهم ومع غيرهم ومع الله، في الحرب والسلام، في الإقامة والسفر... إلخ ثم تحاول كل لجنة أن تجد العائق الذي يعوق تطبيق ما كان هناك في حياتنا المعاصرة... وبذلك نشخص الداء، ونعرف مواضع الألم، ثم نقارن بين ما نرى أنه لا بد منه لحياتنا في هذا العصر، وبين ما كان في عصر النبوة، ونصل إلى تحديد مدى التصحية لو قبلنا أحد الأمرين ورفضنا الآخر، ثم نعرض هذه الدراسة كلها في صدق نية، وفي قوة رغبة في أن نصل إلى علاج ناجح على «المجلس الاجتماعي المتخصص؟!» الذي سيقوم تطبيقاً لبرنامج ٣٠ مارس الذي نادى بإقامة مجالس متخصصة تباشر البحث في الاقتصاد وفي السياسة وفي العلوم.

ولقد ناديت في إحدى محاضراتي التي كان يحضرها بعض المسؤولين بأننا نرغب في عرض هذه القضية: «قضية التوفيق بين الآداب الدينية والنزعات المدنية؟!» على المجلس الاجتماعي المقترح تأليفه، حتى يصل بنا إلى علاج يوفق بين الأمرين دون مساس بالدين ودون جهود بالحياة حتى لا يقع الناس في الحرج الذي يقعون فيه، وأرجو أن يتخذ هذا النداء صورة جدية عند تأليف المجلس المذكور إن شاء الله!». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٩٦-٩٨، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ٩٥-١٠٠].

١٣ - الإعلان عن الحقيقة وإن كانت مرة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أعلن أبو لبابة ؓ عن زلته، دون مواربة، أو تبرير، لم يحاول أن يدافع عن نفسه، ويوهما أنها ما ارتكبت شيئاً يغض منها، أو على الأقل يخفي ما حدث معه حتى يبقى علماً في عيون الناس.

وأريد أن أنبه إلى أمر آخر، وخطأ يقع فيه كثير من الشباب المسلم اليوم، إن الواحد قد يرتكب خطأ من الأخطاء، أو يتصرف تصرفاً يضر به وبجماعة المسلمين، كأن يفشي سراً من أسرار المسلمين، فإذا ما

روجع وعوتب أو حوسب أخذ يتنحل الأعذار لنفسه، ويبرر تصرفه بمبررات لا تستساغ عقلاً وشرعاً، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه غير محق في فعله أو في دفاعه عن نفسه.

ينبغي أن يتعلم المسلم من أبي لبابة رضي الله عنه، كيف يكون صادقاً مع نفسه، يدينها، ولا يدافع عنها إن هي اقترفت ذنباً أو جرماً، ويلجأ من فوره إلى ربه يسأله المغفرة والتوبة، حتى يطهر هذه النفس الأمارة بالسوء». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٧٦/٢].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر موقف جليل لأبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن العبرة في هذا الموقف تكمن في تصرف أبي لبابة رضي الله عنه بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى سراً حربياً خطيراً، فأبو لبابة رضي الله عنه لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، وسيفعلون ذلك لما بينهم وبينه من صلات سابقة؛ ولأنه قدم لهم خدمة كبيرة بإفشاء هذا السر، ومن صالحهم أن يُكتم هذا الخبر، ولكنه رضي الله عنه تذكر حالاً رقابة الله ﷻ عليه وعلمه بما يُسر ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فرعاً عظيماً، جعله يحكم على نفسه بخيانة الله تعالى ورسوله ﷺ، وينطلق إلى مسجد رسول الله ﷺ ليحسب نفسه فيه حتى يتوب الله عليه.

إننا حينما نتصور هذا الخلق الرفيع ونقارنه بما عليه سلوك كثير من أبناء المسلمين اليوم نجد الفرق شاسعاً بين مجتمع الصحابة ومجتمع المسلمين في العصر الحاضر، حيث بلغ الرقي الأخلاقي في العهد النبوي أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه البشر.

وكون أبي لبابة رضي الله عنه زلّ وأخطأ لا يجرح من مكانته العالية ما دام يملك ضميراً يقظاً وعقلاً حاكماً يحكم على تصرفاته فيقومها نحو الأفضل، وقد حكم على نفسه بالخيانة وعاقبها بالحس من غير أن يحكم عليه أحد بذلك؛ لأن المطلب الكبير الذي يشغل باله أن تكون صحيفته بيضاء أمام الله - تعالى - ولن تكون كذلك إلا بالاعتراف بالخطأ والتوبة النصوح.

وهكذا رأينا في هذا الخبر مثلاً من الأمثلة العالية التي يتفوق فيها الإيمان الذي يكون من الرسوخ في القلب بحيث يكون حاكماً على سلوك الإنسان في هذه الحياة، ولئن كان هذا الشعور الإيماني المسيطر على السلوك قد تخلله لحظات من الضعف البشري لدى أبي لبابة رضي الله عنه فلم يحكم تصرفاته بسبب دهشته مما رأى فإنه سرعان ما عاد إليه إدراكه وقوي إيمانه بحيث أقدم على الحكم على نفسه بالخيانة وعاقب نفسه بالعقوبة المذكورة.

وإن السعادة الروحية التي ظفر بها حينها تاب الله تعالى عليه لا يعادلها أي سعادة دنيوية؛ لأنها تحت من نفسه آثار الشعور بالذنب، وكان من نتائج فرحته بهذه التوبة أن استأذن النبي ﷺ في أن يتصدق بهاله كله، فقال له: يحزى عنك الثلث، كما أنه هجر ذلك المكان الذي عصى الله تعالى فيه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ١٦٥/٦ - ١٦٦].

١٤- هكذا تكون التوبة:

يقول د/ أبو فارس: «إننا نتعلم من توبة أبي لبابة ؓ كيف تكون التوبة، التي يقبلها الله تبارك وتعالى، إنها تبدأ بالشعور بالذنب، ويعقب ذلك ألم في النفس يصحبه بكاء ودموع تغسل الذنب، وتذلل وتخضع يطاءً من علو النفس، ومن ثم إذلال النفس والتهوين من شأنها، وتأنيبها على ما بدر منها، ومن ثم التوجه إلى الله ﷻ بقلب مخلص، بعد ندم شديد.

لقد أذل أبو لبابة ؓ نفسه الأمانة بالسوء أيًا إذلال، وهو يربطها بسارية المسجد، والناس يرونه، فيذكرون جريمته، ويرى نفسه مربوطاً فيذكر جريمته، فيؤنب نفسه، حتى تتضاءل بين جنبيه، وهي التي تحب الغرور، وتعتز بكل ما يجعلها تتعش وتعلو، يجب أن يشعرها أنها كانت أعدى أعدائه يوم أن دفعته إلى خيانة الله ﷻ ورسول الله ﷺ.

وبعد ذلك يكون العزم على عدم العودة للإثم مرة ثانية، وهجر كل ما أدى إليه؛ ولهذا فقد عاهد الله ألا يدخل بني قريظة، تلك الأرض التي عصى الله فيها.

نعم إن هجرة البيئة التي ساعدته على ارتكاب المعصية أمر مستحسن، والاتجاه إلى بيئة الطاعة والفضيلة حتى تساعده على الالتزام بالعبادة والتقوى، وهجر أصدقاء السوء أسلم طريقة للبعد عن المعاصي، والحياة مع أقران الخير، والأصدقاء الصالحين تعين على فعل الخير.

ويستحب أن يتبع التائب توبته بصدقة تغسل حوبته، وتطفئ خطيئته فإن الحسنات يذهبن السيئات، وفي الحديث «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»، وما شرعت الكفارة إلا لتغطية الإثم ومحوه وإزالته، والكفارة: صدقة أو صيام». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٧٧/٢ - ٧٨].

١٥ - صدق توبة أبي لبابة ؓ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد علم الله تبارك وتعالى صدق توبة أبي لبابة ؓ فقبلها.

وما أحوجنا إلى الإخلاص في التوبة، والصدق في التوجه إلى جناب الله؛ ليتجاوز عن سيئاتنا، ويغسل حوبتنا، ويتقبل منا أفعالنا، وأن يرزقنا العمل الصالح الخالص». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٧٨/٢].

١٦ - المؤمن يبادر إلى التوبة، ويضرب بتوبة الله عليه:

يقول د/ فيض الله: «كان أبو لبابة الأوسي ؓ، حليفاً لليهود، وقد استشاره هؤلاء - كما رأينا - في النزول على حكم محمد ﷺ، فأشار عليهم بالنزول على حكمه، وأوماً بيده إلى حلقه، يعلنهم أن محمداً مصمم على إبادتهم ذبحاً، واستتصالحهم إن لم يتزلوا على حكمه.

لكنه ما عثم أن علم أنه أفضى سرًا مكتومًا لرسول الله ﷺ وأنه تسارع بذلك، وخان الله ورسوله. فبادر إلى التوبة، وحكم على نفسه بالسجن، فارتبط بسارية من سواري المسجد، لا تحل وثاقه إلا زوجه للصلاة؛ وظل على تلك الحال نحو أسبوع...

إنها إقرار بالذنب، واعتراف بالسيئة، ومبادرة إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة.

إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمَهَلَةٍ ثُمَّ تَوُوبُوا مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [النساء].

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه، على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق. ومن نظائر ذلك - وهي كثيرة - إسرار الغامدية إلى رسول الله ﷺ وقولها له: طهرني؛ وكذلك إلحاح ماعز الذي ألم بها على التطهير أيضًا، واعترافه بإثمه مرة بعد مرة، حتى نفذ فيه وفي صاحبه الحكم. وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة ؓ، وتسابقوا إلى تهنته، حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن، فبشّرته بقبول الله وتوبته.

وهذا مما يشير إلى أن المجتمع المسلم وَحْدَهُ وَحْدَةً متباعدة متراحة، تُعْنَى بالنظافة، وتحرص على الطهارة القلبية، ولا ترضى أن يكون فيها فاسق أو عاصي، أو محروم من رحمة الله ومرضاته؛ تقلق لألم الفرد، وتسعد بسعادته، وتفرح بفرحه». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٦٠-٢٦١].

١٧ - النصيحة لله ورسوله:

يقول د/ الزيد: «ومن قصة أبي لبابة ؓ نأخذ أهمية النصيحة لله ﷻ ولرسوله ﷺ ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، فلا تجوز الخيانة، لا خيانة الله ولا خيانة رسوله ولا خيانة كتابه ولا خيانة إمام المسلمين ولا خيانة عامة المسلمين». [فقه السيرة للزيد ٥١٢].

١٨ - الابتعاد عن مواطن المعاصي:

يقول د/ الزيد: «ومن قصة أبي لبابة ؓ أيضًا نستفيد أهمية الابتعاد عن مواطن المعاصي، فإن أبا لبابة ؓ جعل من توبته أن لا يعود مرة أخرى إلى ديار بني قريظة، وهذا مفيد للتائب، فإن من تاب من معصية ينبغي عليه أن يتعد عن مواطنها، ومجالسة أصحابها، فإن ذلك من دلائل صدق توبته وعزمه ألا يعود إلى ذنبه ومعصيته مرة أخرى، وبخاصة أولئك الذين وقعوا في الخطأ نتيجة الارتباط بجلساء السوء، فإن من دلائل صدق التوبة عدم مقاربة أولئك القراء». [فقه السيرة للزيد ٥١٢].

١٩- أُمَّتَان وتربية الصف الداخلي:

يقول د/ الغضبان: «هذه الأمة النكدة التي ورثت الكتاب، وأخذت عَرَضَ هذا الأدنى، واتبعت هواها وتمنت على الله الأماني، ونكثت بعهد الله، فترع الله منها الأمانة، واستحقت اللعنة، وبقي منها أفراد على العهد، يمثلون الأقلية القليلة الضئيلة، ولا يحولون دون استحقاق غضب الله عليها، وسقوطها في الامتحان الرباني.

هذه الأمة النكدة من اليهود والتي تُزعت منها الأمانة، ونيطت بهذه الأمة الفتية، التي يقف على رأسها رسول الله ﷺ، وتمتد في أعماق الزمن إلى قيام الساعة، هذه الأمة الفتية، والتي تلقت التربية الدؤوبة المستمرة، وتعلمت من درس أخذ القاضي الدروس الكثيرة، تبرز هذه الأمة في الخندق أمة عملاقة صابرة مجاهدة، تستحق رضوان الله وتكريمه، فأعطاه الله الثمرة: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ۝١٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝١٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝١٧﴾ [الأحزاب].

هذه الأمة الوارثة المسلمة، والتي استلمت الراية من الأمة المغضوب عليها أمة اليهود والتي استحق رجالها القتل، ونساؤها السبي، هذه الأمة التي خانت الأمانة، وحادثت الله ورسوله، قضى عليها بالهلاك إلا هؤلاء الأفراد الخمسة من رجالها ونسائها.

بينما نجد الأمة الوارثة الفتية، الأمة الربانية لا يسجل تاريخها في الخندق إلا معصية واحدة ومخالفة واحدة لأحد رجالها الكبار، أبي لبابة بن المنذر ؓ...

إن زلة الرجال الكبار كبيرة، وخاصة من موفد رسول الله ﷺ إلى اليهود، وهو في موضع ثقة القائد الأعظم ﷺ ولكنها في نفس أبي لبابة ؓ أكبر منها في أي نفس أخرى على الإطلاق، على عكس ما نتعامل به من زلاتنا، وأخطائنا التي نحقرها، ونصغرها، ونبررها، وندافع عنها.

وخطيئة أبي لبابة ؓ أعظم درس تربوي للرجال في كيفية التعامل مع الخطأ، فالاعتراف به وأن يربط نفسه بسارية المسجد، حيث يعرف الصغير والكبير والغادي والرائح قصته وخطأه، ويتحدث الناس جميعاً به تحطياً لهذه النفس المخطئة، وقتلاً لهذه الزلة العنيفة، واستمرار الأمر أياماً وليالي على هذا الحال، يعني في الوقت نفسه عظمة التربية لهذا الجندي - القائد - الذي استحمياً أن يقابل قائده بعد هذه الزلة.

إن الرجل منا اليوم لو وقع في هذه الخطيئة لراح يدافع عنها، بأنه لا يريد أن يغش العدو، وقد وثق العدو به، ولا بد أن يعلمه الحقيقة، وخاصة أنها ستعرف فيما بعد.

إن حالة فقدان التربية، وعبودية الذات لتدفع الكثير من الشباب المسلم، بل ورجالات الدعوة أحياناً إلى الاستهانة في دفع الخطأ، واعتباره صواباً، وإن اعترف به فهو يرفض أن يعلم به أحد حتى لا تسقط

مهابته بين الناس، أما هذا الجيل الذي يعيش مع الله في الصبح والمساء والسحر، فهو جيل متفرد في تاريخ البشرية، حيث يندفع أبو لبابة رضي الله عنه لا لينعزل في بيته معلناً مقاطعته لمن واجهوه بخطئه، بل ليعلمن خطيئته على الملأ، ويذكرها الأمة في الغدو والعشي، حرباً على هذه النفس التي اقترفت هذه الزلة، وحرقة للذات لتدوب في الله.

وكان المجتمع المسلم، لا يعيش جو اللغو والغيبة، والشماتة المتلبسة بالإشفاق التي تبرز عند أخطاء الرجال كما هو الحال في مجتمعاتنا المريضة، بل كان يعيش جو الألم والحزن الذي خيم عليه كله، تأثراً لما ألم بأبي لبابة - رضوان الله عليه - إنه المجتمع الذي يحس أن لبنة من بنائه قد أصابها التصدع، وعندما تتم المعالجة، وتنزل التوبة، تعود أفراس المدينة للمجتمع كله.

إن الصبارخ بالتوبة زوج رسول الله ﷺ، تعلن النبأ الذي غمر المدينة بالفرحة، والناس يشورون جميعاً ليطلقوه، ويتم الاحتفال السعيد، بأن يكون القائد الأعظم ﷺ هو الذي يفك إسهاره، وتعلن عودته إلى الصف من جديد، وقد غفر الله تعالى له خطيئته.

أما فرحة أبي لبابة رضي الله عنه، فكانت فرحة عملية، ويحدثنا عنها ابن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء أبو لبابة إلى رسول الله ﷺ، فقال: أَنَا أَهْجَرُ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا هَذَا الذَّنْبَ، فَأَخْرَجُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُجْزَى عَنْكَ الثُّلُثُ»، فَأَخْرَجَ الثُّلُثَ، وَهَجَرَ أَبُو لُبَابَةَ دَارَ قَوْمِهِ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَنْ فِي الْإِسْلَامِ مِنْهُ إِلَّا خَيْرٌ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا. [المغازي للواقدي ٢/٥٠٩].

ونحن نتحدث عن التربية، لا بد أن نذكر فعلها في نفس أبي لبابة رضي الله عنه وهو أحد القادة الاثني عشر الذين كانوا نقباء قومهم:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ ابْنِ الْمُسَبِّبِ، قَالَ: كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ عَتَبَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ رضي الله عنه أَنَّهُ خَاصَمَ بَيْنَهُمَا لَهْ فِي عِدْقٍ، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعِدْقِ لِأَبِي لُبَابَةَ فَصَبَّحَ الْيَتِيمَ، وَاشْتَكَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي لُبَابَةَ: «هَبْ لِي الْعِدْقَ يَا أَبَا لُبَابَةَ» - لِكَيْ يَرُدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَتِيمِ، فَأَبَى أَبُو لُبَابَةَ أَنْ يَهَبَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَبَا لُبَابَةَ! أَعْطِهِ الْيَتِيمَ وَلَكَ مِثْلُهُ فِي الْجَنَّةِ»، فَأَبَى أَبُو لُبَابَةَ أَنْ يُعْطِيَهُ. [المغازي للواقدي ٢/٥٠٥].

لقد وقف أبو لبابة رضي الله عنه عند حقه، ولعله قد تأذى من اليتيم، فلم تطاوعه نفسه أن يتنازل عن حقه، ويعيده له، وهذا المستوى قد يقبل من الرجل العادي، أما القادة الكبار، والصحاب العظام، أما الأنصار أهل البذل والتضحيات، فهذا الموقف لا يتناسب مع مستوى عظمتهم، وكان هذا مما عتب به رسول الله ﷺ على أبي لبابة رضي الله عنه.

إننا نستعيد صورة خطيئة الصحابي العظيم أبي حذيفة بن عتبة رضي الله عنه يوم قال كلمته المشهورة: (نضرب آباءنا وأعمامنا وندع عم محمد، والله لو لقيت العباس عم محمد لأجتمعت بالسيف).

ونذكر كيف كانت عملية تربيته التي رفعتة إلى الأفق الأعلى (فما زلت أصوم، وأصلي، وأتصدق رجاء أن يكفرها الله عني، ولا أرى يكفرها إلا الشهادة)، ورزقه الله تعالى الشهادة في اليمامة.

وهنا لابد أن يتلقى أبو لبابة رضي الله عنه درسًا من أخيه ثابت بن الدحداحة رضي الله عنه (قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَحَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: لَمَّا أَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ، قَالَ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ - وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ -: أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ ابْتَعْتَ هَذَا الْعِدْقَ فَأَعْطَيْتَهُ هَذَا الْيَتِيمَ أَلِي مِثْلُهُ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ»، فَاذْهَبْ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ حَتَّى لَقِيَ أَبَا لُبَابَةَ، فَقَالَ: ابْتَاعَ مِنْكَ عِدْقَكَ بِحَدِيثِي - وَكَأَنْتَ لَهُ حَدِيثُهُ نَحْلٌ -، قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: نَعَمْ، فَاذْهَبْ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ الْعِدْقَ بِحَدِيثِي مِنْ نَحْلٍ، فَأَعْطَاهُ الْيَتِيمَ.

فَلَمْ يَلْبَثْ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ أَنْ جَاءَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى أَحَدٍ، فَخَرَجَ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ قَتِيلَ شَهِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُبَّ عِدْقٍ مُذَلِّلٍ لِابْنِ الدَّحْدَاحَةِ فِي الْجَنَّةِ». [المغازي للواقدي ٥٠٥/٢].

ولا شك أن موقف ثابت بن الدحداحة رضي الله عنه ألقى بعض الأثر في نفس أبي لبابة رضي الله عنه، وقد ابتاع عذقه بحائطه، ولكن الزمن مرّ، ولم يغير في موقف أبي لبابة رضي الله عنه شيئًا يذكر.

أما عندما عانى ما عاناه، ولقي ما لقيه من جراء زلته تلك، وهو الذي لا يرضى أن يهب عذقه لليتيم، ولا يهيبه لرسول الله ﷺ حيث يعطيه اليتيم، هو هو نفسه عندما نزلت توبة الله عليه، يعرض أن ينزل عن ماله كله صدقة لله ولرسوله، شكرًا لله على توبته عليه، فيقول له ﷺ: «يُخْرِجُ عَنْكَ الثُّلُثَ»، والانتقال من حبس العدق إلى الانخلاع من الثروة كلها، هو تفسير جذري في البناء النفسي لأبي لبابة رضي الله عنه، قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ وَنَحْنُ مُحَاصِرُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ كَأَنِّي فِي حِمَاةِ أَسِيَّةَ، فَلَمْ أَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى كِدْتُ أَمُوتُ مِنْ رِيحِهَا، ثُمَّ أَرَى نَهْرًا جَارِيًا، فَأَرَانِي اغْتَسَلْتُ مِنْهُ حَتَّى اسْتَقْنَيْتُ، وَأَرَانِي أَجِدُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَاسْتَعْبَرَهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: لَتَدْخُلَنَّ فِي أَمْرِ نَعْتَمَ لَهُ ثُمَّ يُفَرِّجَ عَنْكَ، فَكُنْتُ أَذْكُرُ قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وَأَنَا مُرْتَبِطٌ، فَأَرْجُو أَنْ تَنْزِلَ تَوْبَتِي. [المغازي للواقدي ٥٠٧/٢].

لقد زلزلت هذه المحنة كيانه، وكان يمضي كل ليلة كأنها يتقلب على حجر، ينتظر الفرج، بفارغ الصبر، إلى أن أذن الله تعالى بتوبته فأعاد هذه التوبة صياغته من جديد، ودخل في الصف الإسلامي، وبين قياداته العليا علمًا من أعلامه، وانضم إلى صف سعد بن معاذ رضي الله عنه وصف أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنه.

لقد كان في وسط السلم الذي يقف على عتبته وسفحه عبد الله بن أبي وأزلامه وزبانيته، فهو أرقى كثيرًا، وأعلى من صف المنافقين، وهو بين ضعاف الإيوان على رأسهم جميعًا، لكن الضعف الذي ناله سلط عليه الأضواء أكثر فأكثر، لكنه ثبت للمحنة، وتحدى الضعف بعزيمة جبارة، وتحمل خطر هذا الضعف، حتى ارتقى إلى الصف العالي من جديد.

وهنا تكمن عظمة التربية النبوية، التي استطاعت أن ترفع الضعاف إلى الأفق الأعلى، دون أن تحطمهم تحت مطرقة التعيير بالضعف فيخلدون إليه، ودون أن تمرر خطيئاتهم، فيستهينون بها، ويستمررونها فتصبح مألوفة عندهم، فقد كان جوابه ﷺ من الحسم حين رآه مضى وربط نفسه بسارية المسجد: «أَمَا إِنَّهُ لَوِ جَاءَنِي لَأَسْتَغْفِرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، وهو الموقف نفسه الذي وقفه ﷺ من خطيئة الكبار، خطيئة كعب: «أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَّقَ، فَتَمَّ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فِيكَ».

وهذا الخط التربوي العظيم الصاعد كان امتداد القاعدة الصلبة، ليس امتداداً أفقيًا فقط، وليس اتساعاً رقميًا فقط، بل كان امتداداً عمودياً في الأعماق، وعملاً هائلاً في البناء لا يدع فرداً من أفراده دون عناية أو رعاية، فكل فرد فيه مقصود بذاته، ولا بد أن يكون يمرر بالتجربة الصعبة، والامتحان الدقيق، ليسبر معدنه من خلاله، وليس سماح رسول الله ﷺ لأبي لبابة رضي الله عنه بأن يمضي لليهود، إلا الثقة به وبدينه وعقيدته وإخلاصه، وقتعه ﷺ بالنفوس كان في موقعه، فالزلة العنيفة يتقظ لها في اللحظة المناسبة وعلى التو. (قَالَ: فَلَمِئْتُ فَاسْتَرْجَعْتُ، فَقَالَ لِي كَعْبٌ: مَا لَكَ يَا أَبَا لُبَابَةَ؟ فَقُلْتُ: خُئْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَتَرَلْتُ وَإِنْ لِحَيَّتِي لَمُبْتَلَةً مِنَ الدُّمُوعِ). [المغازي للواقدي ٥٠٦/٢].

فما أروع هذا الخطأ، لنفقه من خلاله عملية البناء!!). [التربية القيادية للغضبان ١٢٣/٤-١٢٩].

٢٠ - رحمة الراعي بالرعية:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ رحيماً بكل مسلم، يفرح لتوبة المسلم إذا قبلها الرب تبارك وتعالى؛ لأن هذا تعلمه من ربه، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٌ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيَسَ مِنْ رَأْسِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ». [مسلم في التوبة (٢٧٤٧)].

وهذا الفرح يدل على رحمة الرسول ﷺ بالمسلمين، قال سبحانه يصف رسوله ﷺ: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» (١٨) [التوبة]. أي فرح هذا الذي يوقظ رسول الله ﷺ في جوف الليل، حتى يتفجر بالضحك بملء فيه، فتسأله أم سلمة عن هذا الضحك الذي يعبر عن سروره وفرحه ﷺ تعبيراً يعجز القلم عن وصفه، فيخبر أم سلمة، أنه مسرور أيها سرور لأن الله تاب على أبي لبابة رضي الله عنه. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٧٨/٢-٧٩].

ويقول د/ الحميدي: «إنه موقف لرسول الله ﷺ في العفو والرحمة وغيض النظر عن زلات الكرام، فمع هذه الزلة الكبيرة التي وقع فيها أبو لبابة رضي الله عنه، والتي من شأنها أن تغير مجرى المعركة، وأن ترهق

الجيش الإسلامي، فإن النبي ﷺ لم يأمر بحضوره إلى المحاكمة، ولم يحكم عليه بشيء لعلمه بسلامة مقصده وحبه لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأن الذي جرى منه إنما كان زلة من لسانه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ١/٦٦٦].

٢١ - تواد المسلمين وتعاطفهم:

يقول د/ أبو فارس: «إنك تشعر بهذا الود، وهذا الحب، وهذا التعاطف، وأنت تقرأ قصة أبي لبابة ؓ وتوبته، فترى الذين في المسجد حين تبشّر أم سلمة بقبول توبة أبي لبابة ؓ، يملأ السرور قلوبهم، ويطفح البشر على وجوههم، ويقومون ليهنؤوا أبا لبابة ؓ، ويشوروا لفكه من رباطه، حتى يعود إلى زمرة المؤمنين، يشاطرهم السعادة في المجتمع».

لقد عاش حزيناً أياماً وليالي، وهم ينظرون إليه، ويجزون لحزنه، قلوبهم تعتصر ألماً وهم يرون جسمه يذوي ويذبل ويصفر، وينعدم نومه، ولا يذوق طعاماً أو شرباً، كأني بهم وهم يضرعون إلى الله بالدعاء أن يتوب على أخيه أبي لبابة ؓ، ويتظنون ثمرة أديعتهم الحارة المخلصة، وبمجرد سماع أم سلمة ثاروا، هكذا العبارة في الرواية تقول، إنها العاطفة الصادقة، والمحبة الخالصة، والأخوة الحميمة تتجسد في هذه اللحظات، وتحقق قول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى».

[البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم (واللفظ له) في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)].

أي تواد أعظم من هذا التواد، أي تراحم أعظم من هذا التراحم، أي تعاطف أعظم من هذا التعاطف، إنها نعمة الإسلام التي ألّفت بين هذه القلوب، وجمعت هذه النفوس، تسكب المودة والحب والعطف والشفقة في قلوب أتباعها.

نسأل الله - تبارك وتعالى - أن يرزقنا حب رسول الله ﷺ، وحب من يحب رسول الله ﷺ، وأن يديم هذه المحبة في قلوبنا ونفوسنا لكل مسلم، وأن يثبتنا على طريق الخير والصدق والمودة والحب».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/٧٩-٨٠].

٢٢ - الحكم من حرص أبي لبابة ؓ أن يفكه الرسول ﷺ بيده:

يقول د/ أبو فارس: «لقد ثار صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا في المسجد ليفكوا رباط أبي لبابة ؓ، وهو في أمس الحاجة إلى ذلك فأبى على واحد منهم أن يفعل هذا، وأقسم ألا يفكه إلا رسول الله ﷺ، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ الذي يطلقني بيده، فكان له ذلك، إذ انتظر حتى قدم رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر ففكه بيده الشريفة».

ويلوح لي أن هذا الإصرار يعود إلى حكم بحاجة إلى توضيح وشرح، أما هذه الحكم فقد أشار إليها صاحب شرح المواهب اللدنية رحمه الله فقال: (تعظيماً له، ورجاء حصول بركته، وحتى لا يعود لمثلها).

ولقد تساءلْتُ في نفسي عندما وقفت عند هذه العبارة المقتضية الموجزة كل الإيجاز، كيف يكون فك رسول الله ﷺ تعظيماً لرسول الله ﷺ؟

وكيف يكون رجاء حصول بركة رسول الله ﷺ؟

وكيف يكون لذلك أثر ألا يعود لمثل تلك المعصية؟

(١) ولقد انقدح في روعي بعد تأمل وتدبر أن فك رسول الله ﷺ لأبي لبابة ؓ، تعظيماً لهذا الرسول الحبيب ﷺ، كيف أفسر هذا؟

رأيت إلى إنسان يعترف بذنبه، ويأتي لمن أساء إليه، ويعترف أمامه بأنه اقترف ما اقترف، وهو الآن جاء نادماً معترفاً، ربط نفسه، طالباً من الذي أساء إليه أن يتفضل عليه بالمن والعفو، وأن يقم رباطه.

لقد ألفت عادة في بلادنا وعن آبائنا أن الجاني إذا ثبتت عليه الجناية، واستحق العقوبة، يوثق بوثاق، أو يوضع عقاله في عنقه، ويقدم إلى أهل المجني عليه، ويبحثو على ركه بين يديهم ليستوفوا حقهم منه أو يعفوا عنه.

إن الأمر الآن بأيديهم إن شاءوا أخذوا بالقود، وإن شاءوا منوا عليه، وعفوا عنه، وأنقذوا رقبتهم من القطع، أليس تعظيماً هؤلاء أن يفكوا هذا الجاني بأيديهم، بل إنه لتعظيم أي تعظيم، فإذا حدث منهم هذا، سارت الركبان بمدحهم والثناء عليهم.

نعم لقد كان أبو لبابة ؓ قد حرص على أن يطلقه رسول الله ﷺ بيده تعظيماً لهذا الرسول، وتكريماً له ﷺ.

(٢) وحرصُ أبي لبابة ؓ أن يفكه رسول الله ﷺ بيده حتى تحصل له البركة، بركة رسول الله ﷺ، أي بركة هذه التي تحصل؟

نعم إن جسم رسول الله ﷺ كله مبارك، شعره ﷺ مبارك، يده ﷺ مباركة، أطراف رسول الله ﷺ مباركة، ريق رسول الله ﷺ مبارك، دم رسول الله ﷺ مبارك، على هذا قامت الشواهد والأدلة من السنة القولية والعملية والتقريرية، وفعل الصحابة ؓ، لقد كان صحابة رسول الله ﷺ يتسابقون على التبرك بمس يده ومصافحته وتقبيل يده الشريفة، وتقبيل بطنه ﷺ، والتبرك بشعره، والأخذ منه، والاحتفاظ به مدة طويلة يتناقله الأبناء عن الآباء، والخلفاء عن الخلفاء طلباً لحصول البركة.

ألم يكن في ريق رسول الله ﷺ بركة حين وضع منه في طعام جابر بن عبد الله ؓ، وكان قليلاً فبارك الله فيه، كان صاعاً من شعر، وكان سحلة صغيرة، ألم تكن يده مباركة حين مس طعام جابر ؓ، فأطعم مَنْ كان في الخندق يوم غزوة الأحزاب حين كانوا يحفرون الخندق.

ألم ينكب سَوَادُ بْنُ عَزِيَّةٍ ﷺ في غزوة بدر يقبل بطن رسول الله ﷺ، فیسأله ﷺ: «مَا كَمْ لَكَ عَلَى مَا صَعَتَ؟» فَقَالَ: «حَصَرَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا قَدْ تَرَى، وَخَشِيتُ الْقَتْلَ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِي بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ، وَأَنْ أَعْتِنِكَ»، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

[ينظر غزوة بدر - د/ محمد أبو فارس ص ٥١].

ألم يقف سهيل بن عمرو ﷺ عند المنحر يوم حجة الوداع يقرب إلى رسول الله ﷺ بدنة، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ويأخذ من شعر رسول الله ﷺ ويضعه على عينيه حين حلق شعره تبركاً.

[ينظر غزوة الحديبية - د/ محمد أبو فارس ص ٧].

ألم يزدرد أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ في غزوة أحد شيئاً من دم رسول الله ﷺ حينما خلع حلقة المغفر من جسم رسول الله ﷺ، فلم ينكر عليه ذلك.

وإننا نقرأ في كتب السنة النبوية أن أحد التابعين كان يحرص على تقبيل يد أنس بن مالك ﷺ لأن هذه اليد مست يد رسول الله ﷺ، تأمل: يقول التابعي لأنس ﷺ: أمسست بيدك يد رسول الله ﷺ، فيقول أنس ﷺ: نعم، فيقول التابعي: أعطني يدك أقبلها.

ولما طلبت المرأة التي بايعت رسول الله ﷺ أن تباعه كما بايعه الرجال حرصاً على أن تنال البركة بمصافحة رسول الله ﷺ، قال: إني لا أصفاح النساء.

[نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ٢/ ٩٢٥].

هذا هو دافع المرأة في المصافحة، الحرص على حصول البركة لها، بالمصافحة وحتى لا يأتي من يعتمد على هذا ليبسح المصافحة، مصافحة الرجل للمرأة الأجنبية، لم يرض رسول الله ﷺ بالمصافحة.

قال السفاريني في شرحه ثلاثيات مسند الإمام أحمد رحمه ﷺ في شرحه للحديث: ومقصودها هنا (أي مقصود المرأة التي طلبت المصافحة كالرجال في البيعة) بايعنا بيدك الشريفة، وتحصل لنا بركة ذلك، ولذا قال مجيباً لسؤالها: لا أصفاح النساء. [المصدر السابق ٢/ ٩٢٧].

أجل إنه حب رسول الله ﷺ الذي لا يجد الإنسان المسلم غضاضة في أن يقبل يدي رسول الله ﷺ، ورجليه وأقدامه الشريفة المباركة، وأن يمسح عينيه بشعره الشريف.

وإني والذي نفسي بيده لتتواقي إلى رؤية شعرة من شعر رأس رسول الله ﷺ أو لحيته، أمسح بها وجهي وعيناي كما مسح سهيل بن عمرو وجهه وعينه، بشعره الذي كان يتساقط وهو يحلقه ليحل من إحرامه يوم حجة الوداع، وإني والله لأسعد الناس حين أظفر بذلك.

اللهم ارزقنا حبك وحب رسولك ﷺ، وحب من يحب رسولك ﷺ، ووفقنا للالتزام بطاعته، والافتداء بسنته، والثبات على دربه، والوفاء على الإيمان، والستر الجميل في الدنيا والآخرة.

(٣) وهناك حكمة ثالثة ألمح إليها صاحب شرح المواهب اللدنية رحمه الله بقوله: (حتى لا يعود لمثلها)، ما العلاقة بين أن يطلقه الرسول ﷺ بيده، وبين عدم العودة لمثل تلك الخطيئة؟

أقول: إن أبا لبابة رضي الله عنه حين يستذكر أو يمر في خاطره أنه ارتكب الخيانة في غزوة بني قريظة، فأفشى سرًا من أسرار المسلمين، وحدث ما حدث له بعدها من الشدة والمعاني، ثم تكرم الله ﷻ عليه بقبول توبته، وتفضل عليه رسول الله ﷺ بإطلاقه بيده بناء على رغبته وطلبه، ينجل من ربه، ومن نفسه، ويجد حرجًا شديدًا كيف يواجه رسول الله ﷺ، وقد تفضل عليه، وأحسن إليه، إن هذا سيكون له دافعًا لهجر المعاصي، التي أوقعته في القيد الذي فكّه رسول الله ﷺ، وإذا وقع في القيد من يفكه؟

إن الإنسان المؤمن الشريف إذا ذكر لإنسان فضلًا عليه، فإن الوفاء والمروءة تقضيان عليه أن يقابل أهل الفضل بالفضل، والإحسان بالإحسان، بل يسعى جاهدًا ليكافئ أهل الفضل فلا يغضبهم، بل يقوم بكل ما يسرهم، ويرضيهم، ويدخل السرور إلى أنفسهم.

والمسلم كأبي لبابة رضي الله عنه الصحابي الجليل الذي تاب الله عليه، ومن رسول الله ﷺ بإطلاقه بيده، وفرح بتوبته لأولى أن ينجل منه، ويستحي منه، فيكف عن مثل هذه المعاصي، بل ويتبعها بالطاعات، كصوم النافلة، والصدقة وما إلى ذلك.

هذا هو تفسيرنا لعبارة صاحب شرح المواهب اللدنية عبد العظيم الزرقاني رحمه الله حين قال: (تعظيمًا له، ورجاء حصول بركته، وحتى لا يعود لمثلها). [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢ / ٨٠-٨٤].

٢٣ - تعلق المؤمن بالشهادة والجهاد:

يقول د/ أبو فارس: «تري هذا التعلق، وهذا الشغف عند سعد بن معاذ رضي الله عنه، وهو يدعو الله - تبارك وتعالى - أن يُبقية لقتال قريش إن بقي معارك يخوض فيها القتال ضدها، انتقامًا لله ﷻ، ولرسوله ﷺ، فقد أذت قريش رسول الله ﷺ، ومن آمن معه من أهلها وأخرجتهم من مكة.

وهو يحرص على الشهادة أيضًا ويتمناها، ويدعو الله بقلب مخلص أن يرزقه إياها إن كان قد قدر أن قريشًا لن تغزو المسلمين، وتكون غزوة الأحزاب آخر غزوة يهاجم فيها المسلمون.

أقول: لقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه يحرص على الشهادة ويتمناها لما كان يعلم ويتعلم من رسول الله ﷺ من منزلة الشهيد ومكانته عند الله تبارك وتعالى، سواء بما يتلو عليه وعلى أصحابه من آيات القرآن، أو بما يحدثهم من حديثه الشريف عن هذه المنزلة، فهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣١﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٢﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

وهذه الحياة التي يتحدث عنها القرآن الكريم الخاصة بالشهيد تجعل كل مسلم حريص عليها أن يتمنى الشهادة، ويسأل الله أن يرزقه مودة الشهداء. [سبق تفصيل الحديث عن الشهداء ومكاتبتهم وأحكامهم في المبحث الرابع من الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أحد].

وإن الشهيد يتمنى أن يعود إلى الدنيا ويُقتل مرات لما يرى من التكريم والمنزلة الرفيعة التي يمنها الله تعالى على الشهداء.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَشْهِدَ أَبِي قَتِيلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا، قَالَ: «أَفَلَا أَبْشُرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا (مواجهة ليس بينها حجاب ولا رسول)، فَقَالَ: يَا عَبْدِي! تَمَنَّ عَلَى أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ! تُحْيِيَنِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: «إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ»، [قَالَ يَا رَبِّ فَأَبْلُغْ مِنْ وَرَائِي]، قَالَ: وَأَنْزَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران].

[الترمذي في التفسير (٣٠١٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [٣] فَقَالَ: أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَنْسُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطْلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ [تَسْتَزِيدُونَ] شَيْئًا [فَأَزِيدُكُمْ]، قَالُوا: أَيْ شَيْءٍ نَشْتَهِي [رَبَّنَا وَمَا نَسْتَزِيدُ] وَنَحْنُ نَسْخُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرْكُوا».

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه مثله وَرَادَ فِيهِ: «وَتُقَرَّرُ نَبِيَّتَا السَّلَامِ، وَتُخْرِجُهُ عَنَّا أَنَا قَدْ رَضِينَا وَرَضِيَ عَنَّا». [مسلم في الإمامة (١٨٨٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١١)].

وفوق هذا فإن الله يكرم الشهيد بأن يُشَفِّعه في سبعين من أهل بيته من المسلمين. عَنْ نِزْرَانَ بْنِ عُبَيْةِ الدَّمَارِيِّ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ أَيْتَامُ، فَقَالَتْ: أَبْشِرُوا فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُشَفِّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ».

[أبو داود في الجهاد (٢٥٢٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وفي سنن النسائي: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ ﷺ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً». [النسائي في الجنائز (٢٠٥٣)، وقال الألباني: صحيح].

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٢٧/٢ - ١٣٠].

٢٤ - إخلاص النية في الجهاد والاستشهاد:

يقول د/ أبو فارس: «هذا نفقته من قول سعد بن معاذ رضي الله عنه في دعائه: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، وقوله أيضاً: فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبٍ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ».

نعم إن الجهاد الحق هو الجهاد الذي يكون في سبيل الله؛ ولإعلاء رايته وليس لمغنم ولا لجاه، ولا لسمعة، ولا لسلطان، ولا ليمدح عند الناس، فإن كان الجهاد لواحدة من هذه الأمور أو لجميعها فليس جهاداً، والموت في سبيلها ليس شهادة تستحق المتزلة الرفيعة عند الله - تبارك وتعالى - هذا ما أخبر به الرسول ﷺ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ [وفي رواية: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حِمَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً] فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

[البخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمامة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، وأحمد رقم ١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١.]

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٣٠/٢ - ١٣١.]

٢٥ - المؤمن ذو فراصة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه ذا فراصة، يتوقع الأمور قبل حدوثها، يستتجها من الظروف والأحوال والأمارات الدالة عليها، ومن جملة ذلك فراسته في غزوة الأحزاب بأنها آخر غزوة يتعرض فيها المسلمون لهجوم قريش، تأمل قوله: اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَصَّعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ».

وهذه الفراسة قد صدقت فعلاً إذ تحول المسلمون بعد هذه الغزوة إلى مهاجرين، يهاجون قريشاً في عقر دارها، ويفتحون مكة في أول صراع دام بعد غزوة الأحزاب، ويؤكد ظن سعد بن معاذ رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ».

[البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/٢٤٠، ٢٤١ عن سليمان بن صرد رضي الله عنه رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ١٨٤/٤٥، ١٨٤/٢٧٢٠٦.] [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٣١/٢ - ١٣٢.]

قال ابن حجر في الفتح: «وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ ظَنَّ سَعْدٍ رضي الله عنه كَانَ مُصِيباً، وَأَنَّ دَعَاءَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ كَانَ مُجَاباً، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَّعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ مِنْ بَعْدِ وَقْعَةِ الْحَنْدَقِ حَرْبٌ يَكُونُ ابْتِدَاءُ الْقَصْدِ فِيهَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّهُ ﷺ تَجَهَّزَ إِلَى الْعُمَرَةِ فَصَدَّوهُ عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ وَكَادَ الْحَرْبُ أَنْ يَتَّعَ بَيْنَهُمْ فَلَمْ يَتَّعْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَلِأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِ الْمَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤) [الفتح]، ثُمَّ وَقَعَتِ الْهُدْنَةُ وَاعْتَمَرَ ﷺ مِنْ قَابِلٍ، وَاسْتَمَرَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَقْضُوا الْعَهْدَ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ عَازِياً فَفَتِحَتْ مَكَّةُ». [فتح الباري ٧/٢٩٢.]

وقد قال رسول الله ﷺ في منصرفه عن غزوة الأحزاب، فيما رواه البخاري: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/٢٤١، رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، رقم ٢٧٢٠٦].

وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر أنه ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعاً كثيرة: «لَا يَغْزُوكُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَكِنْ تَغْزُوهُمْ». [مجمع الزوائد ٦/٢٠٢ في المغازي والسير (١٠١٥٧)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/٣٣٦ رقم ١٨١٠، ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/٤٦٨: إسناده حسن]. [فقه السيرة للبطوني ٢٤١-٢٤١].

٢٦ - يستجيب الله دعاء المتقين المخلصين، والرسول ﷺ يأمر بإكرامهم:

يقول د/ فيض الله: «كان سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس، الذين كانوا حلفاء بني قريظة؛ وقد أصيب يوم الأحزاب، ودعا دعوة بني قريظة، فاستجاب له ربه، وحكم فيهم، فحكم عليهم، وكان حكمه هو حكم الله من فوق السموات.

وهذا دعاء يتجلى فيه الإخلاص لله في حرب قريش التي أذت الرسول ﷺ وكذبتة، وفي طلب الشهادة في سبيله، وفي شفاء غليل النفس من خيانة اليهود، ونقضهم العهود، وتماثلهم المقبوح لاجتياح المسلمين؛ وقد سمع الله - تعالى - هذا الدعاء المخلص، واستجاب له.

كان جرح سعد رضي الله عنه بليغاً، فأمر النبي ﷺ بمداواته في خيمة رفيدة في مسجده، وكانت تداوي فيها الجرحى، وتخدم من كانت به ضيعة من المسلمين، وقال ﷺ: «اجْعَلُوهُ فِي خِيْمَةٍ رَفِيْدَةٍ حَتَّى أَعُوْدَهُ مِنْ قَرِيبٍ».

وحينما جاء سعد رضي الله عنه ليحكم في بني قريظة، يقول الرسول ﷺ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ». وكفى بهذا تكريماً لسعد رضي الله عنه، وتقديراً لشخصه، إذ سماه سيِّداً، وأمر بالقيام له؛ فحكم بحكمه الحاسم الفاضل، كما رأينا، بعد أن أخذ الموائيق على التسليم بحكمه، ونفذ الحكم في بني قريظة، فاستجيبَت دعوته، وَفَرَّتْ عَيْنُهُ، بوضع السيف فيهم، والإجهاز عليهم. وكان قد اندمَل جرحه الذي أصابه يوم الخندق، فاستجيبَت دعوته الأولى، بأن يُسْتَشْهَدَ في حرب قريش.

وليس ذلك فحسب كل ما أكرم به سعد رضي الله عنه، بل غير ذلك الكثير مما فصلنا القول فيه من قبل. وهكذا يستجيب الله ﷻ دعاء أوليائه المخلصين المتقين، وهكذا يحتفي بهم في الدنيا، وفي أول برازخ الآخرة، ويخصهم برحمته، ويسخر ملائكة لخدمتهم؛ وهكذا أيضاً يكرم رسول الله ﷺ أولياء الله المجابي الدعوة، فيأمر بالقيام لهم احتراماً وإجلالاً، وَيُشَبِّعُ جنازتهم، ويشهد دفنهم، وَيُشَيِّدُ بما يرى لهم من تكريم في قبورهم في الأرض، ولأرواحهم في أعالي السماء.

وغني عن البيان بعد هذا، أن قصة سعد ؓ هذه أشارت في ثناياها إلى شرعية تسويد أعلام المسلمين من الصحابة وغيرهم، والقيام لأهل العلم والفضل في الدين - كما تقرره كتب الفقه والحديث؛ كما أشارت إلى كرامات الأولياء، في الحياة وبعد الممات - كما تقرره كتب التوحيد.

اللهم اجعل لنا في سعد ؓ وأمثال سعد ؓ، أسوة صالحة، وقدوة تُتَّخَذُ، في إخلاص العمل، وتعلق القلب بالانتصار لدين الله، والشهادة في سبيله». [صور وعبر لفيض الله ٢٦٣-٢٦٦].

٢٧ - عدم المحاباة في الحق:

يقول د/ أبو فارس: «حُكِمَ سعد ؓ لم يجامل فيه أحداً، ولم تأخذه في الله لومة لائم، بل كان منطلقاً من عقيدته ودينه، ليس للدنيا أثر في حكمه، وهكذا ينبغي على كل مسلم ألا تأخذه في الله لومة لائم، لا يحابي أحداً ولا يظلم عدواً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

لقد ضرب سعد ؓ بعرض الحائط كل الرجاءات ونطق الحكم الذي وافق حكم الله من فوق سبع سموات.

إن موقف سعد ؓ من مواليه بني قريظة وحكمه عليهم، وعدم أخذه في ذلك لومة لائم، فلم ينظر إلى مصلحة خاصة أو مصلحة لقومه، فلم يدافع عنهم، ولم يخفف الحكم عنهم كما وقف عبد الله بن أبي ابن سلول حين دافع عن بني قينقاع، وألح على الرسول ﷺ فيهم حتى وهبهم رسول الله ﷺ له، وأجلاهم عن المدينة دون أن يعاقبهم، نتعلم منه الحب في الله والبغض في الله، وهي من أمارات الإيمان الصافي الحي». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٢، ١٦٦].

٢٨ - فضل سعد ؓ:

يقول د/ المدخلي: «كان سعد ؓ في أثناء حياته ملازماً لرسول الله ﷺ لم يخرج إلى غزوة إلا خرج سعد ؓ معه، فنجده في الغزوات المشهورة والعظيمة مثل بدر، ومقام به من دور فيها مشهور، وفي غزوة أحد كان له دوره المشرف، وجاءت غزوة الخندق حيث أراد الله له الحسنى فضرب أروع الأمثلة.

وحتى بعد أن رُمي في أكحله استمر مجاهداً في سبيل الله حتى حقق الله ما طلب وشفى قلبه من اليهود الذين خذلوا دين الله وخذلوا رسوله في وقت عصيب، ولكن الله ﷻ رد كيدهم في نحورهم، وحَكَمَ فيهم سعداً ؓ، فأخذوا وقتلوا تقتيلاً على مرأى ومسمع من المسلمين، وذلك انتقام من الله جزاء بعض ما فعلوه.

عقب ذلك كله مات سعد ؓ راضياً مرضياً.

ويظهر فضله وبرز للعيان بعد موته، ونعمت النهاية التي جاهد في حياته لنيلها يتمثل ذلك في اهتزاز العرش لموته.

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: «اهْتَزَّهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ». [مسلم في فضائل الصحابة رحمهم الله (٢٤٦٦)، كما رواه البخاري والترمذي والنسائي ولفظه «تحرك له العرش» - ولم يذكر فيه سعد - وابن ماجه وأحمد].
وكانت هذه المنقبة العظيمة له عند موته.

كما أن منزلته ﷺ في الجنة عظيمة وذلك لما قدمه من تضحيات وفداء في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمته ونصر دينه فوفاه الله ما وعده لذلك روى البخاري رحمهم الله بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قَالَ: أَيْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِثَوْبٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَجَعَلُوا يَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهِ وَلِينِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا».

[البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٩)، ومواضع أخرى، كما رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد].
هذا جانب من دوره ﷺ في سبيل نصر هذا الدين، حتى إنه وفي آخر أيامه وبعد إصابته في أكحله صبر وصابر واحتسب وهانت نفسه في سبيل الله ودعا بدعائه المشهور وأبقاه الله حتى نفذ حكم الله في أعداء الله وأعداء رسوله وما مات حتى قرت عينه ورضي قلبه من أولئك اليهود الذين ما فتؤوا يكيدون للإسلام وأهله ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

أما حكمه ﷺ في بني قريظة فكان قوياً ومؤثراً وقاطعاً لدابر أي محاولة أخرى من قبل اليهود حيث صدر الحكم ممن يرجون ويأملون منه المساعدة، وهذه حكمة الله حيث أهلكهم بحكم سعد رضي الله عنه، وكانوا حلفاء ومواليه، ولكنه ﷺ أطلق كلمته المشهورة: «لَقَدْ أَنْ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَئِيمٌ».

قال ابن سعد: «وبعد أن حكم فيهم مرت عتز وهو مضطجع فأصاب الجرح بظلفها فما رقاً حتى مات». [الطبقات الكبرى ٧٨/٢، فتح الباري ٤١٥/٧]. [مرويات غزوة الخندق ٣٦٢-٣٦٦].

ويقول د/ البوطي: «وإنك لتقف خلال اطلاعك على هذه الغزوة، على مزية كبرى لسيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه، فإنك لتجد ذلك أولاً في إعطاء النبي ﷺ له صلاحية الحكم بما يشاء على بني قريظة، وجعل موقفه منه - وهو رسول الله ﷺ - موقف الموافق والمؤيد لكل ما سيحكم به، ونجد ذلك ثانياً في أمر النبي ﷺ لأنصار بالقيام إليه حينما أقبل إليهم، وتلك مزية كبرى لسعد رضي الله عنه حينما يكون هذا الأمر صادراً من رسول الله ﷺ.

ثم تجد ذلك في قصة الجرح الذي كان قد أصابه في كاحله في غزوة الخندق، لقد رفع يده يدعو الله تعالى يوم أن أصابه هذا الجرح قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ

كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ»، وقد استجيب دعاء سعد بن معاذ ﷺ فتحجر جرحه وتمائل للشقاء، حتى كانت غزوة بني قريظة، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه، وكفى الله المؤمنين شر اليهود وتطهرت المدينة من أرجاسهم، رفع سعد ﷺ يده يدعو الله ثانية يقول: «اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ (يعني قريشاً والمشركين)،... فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتُ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَأَفْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهَا»، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله تعالى. [فقه السيرة للبوطي ٢٤١].

ويقول د/ أبو فارس: «إن اختيار رسول الله ﷺ سعد بن معاذ ﷺ ليحكم في يهود بني قريظة دليل على منزلة سعد ﷺ عند رسول الله ﷺ، كما هو دليل على كفاءة سعد ﷺ وقدرته أن يبت في هذه القضية، وقد حكم فيها فعلاً فوافق حكمه حكم الله ﷻ في السماء، وأي رأي أصوب من أن يؤيد بالوحي؟! وهو تركية من رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ، بأنه حقاني، لا يتأثر بضغوط الأقارب عليه، ورجائهم له، وتذكيره بالماضي، وبأخلاقه، وفي معمعة الرجاء والإلحاح فيه، لا ينسى ما فعلت بنو قريظة برسول الله ﷺ بالمسلمين، وما أقدمت عليه من غدر وخيانة، وأنها تستحق العقوبة الزاجرة. إننا لا نبالغ إذا قلنا: إن سعد بن معاذ ﷺ كان خير رجل في الأنصار بإيمانه وغيته على الإسلام، ونشره له، ومقاتلته لأعدائه، فهو بحق سيد الأنصار وخيرهم كما قال رسول الله ﷺ».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٠٥/٢-١٠٦].

٢٩ - سعد بن معاذ ﷺ والتربية الإيمانية العالية:

يقول د/ الغضبان: «أما ثالث الثلاثة وسيدهم فهو البطل العظيم الذي يفتقده أهل السماء وأهل الأرض في الخندق إنه سعد بن معاذ ﷺ، ولئن كانت المصيبة الجلل لرسول الله ﷺ في بدر بابن عمه عبيدة بن الحارث ﷺ، وفي أحد بعمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فقد كانت مصيبته ومصيبة المسلمين والملائكة في الخندق باستشهاد سعد بن معاذ ﷺ».

ولترافق سعد في لحظاته الأخيرة، ليكون على رأس من قال فيهم: «مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا» [الأحزاب].

(١) نشير ابتداءً إلى حديث رسول الله ﷺ في فضل دور الأنصار: «خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ، ثُمَّ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ».

[البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٨٩) ومواضع أخرى، ومسلم في الفضائل (١٣٩٢)، ومواضع أخرى، والترمذي في الفضائل (٣٩١١)، وأحمد في المسند عن أنس بن مالك ﷺ].

(٢) وسيد بني عبد الأشهل هو سعد بن معاذ ﷺ بلا منازع، وهو سيد الأوس جميعاً.

نَقَلَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ أَبِي عَيْسَى بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ قُرَيْشًا سَمِعَتْ هَاتِفًا عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ يَقُولُ:

فَإِنْ يَسْلَمْ السَّعْدَانِ يُصْبِحَ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ
فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَنْ السَّعْدَانِ؟ سَعْدُ بَكْرٍ سَعْدُ تَمِيمٍ؟ فَسَمِعُوا فِي اللَّيْلِ الْهَاتِفَ يَقُولُ:
أَيَا سَعْدُ سَعْدُ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا وَيَا سَعْدُ سَعْدُ الْخَزْرَجِيِّنَ الْغَطَارِفِ
أَجِيبَا إِلَى دَاعِيِ الْهَدَى وَتَمَيِّبَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ
فَإِنْ نَوَّابَ اللَّهِ لِلطَّالِبِ الْهَدَى جَنَّاتٍ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ذَاتِ رَقَارِفِ

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ - وَاللَّهِ - سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ. [سير أعلام النبلاء ٢٨٠ / ١]، وقال المحقق فيه: «ذكره البخاري في التاريخ الصغير ٢٥ - ٢٦ وعند مسلم وعدد الآيات اثنان».

(٣) وبإسلامه تحولت عشيرته كلها إلى الإسلام: «أَسْلَمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ۖ عَلَى يَدِ مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ۖ فَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَسْلَمَ وَقَفَ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ! كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فَيْكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا فَضْلًا، وَأَيِّمُنَا نَقِيَّةً، قَالَ: فَإِنْ كَلَامُكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ، رَجَالُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا وَاسْلَمُوا».

[سير أعلام النبلاء ٢٨٠ / ١].

(٤) ونعود إليه في الخندق، وقد شهدناه عند حلفائه بني قريظة الذين لم يرفعوا له حلفاء، ولا ذمة، ورأيناه كالسبع الضاري في مواجهة غطفان حين قال كما ذكرنا في غزوة الأحزاب.

إن بعض الرجال ليحققون المنعطقات التاريخية، وسعد بن معاذ ۖ أحد هؤلاء الرجال العظام، الذين كتبوا التاريخ بأعمالهم، وحققوا أهم المنعطقات فيه، في إسلامه، وفي موقفه في بدر، وفي موقفه في الخندق، وها هو نشهده في ختام حياته يحقق ذلك المنعطف التاريخي في بني قريظة.

(٥) وكما سقط البطل العظيم حمزة ۖ صريعاً غيلة فلا يجروا على مواجهته أحد، نجد سعداً ۖ يلقي المصير نفسه من بعيد، وقد قصت علينا عائشة ۓ قصة جرحه، وقصة تحكيمه، وقصة وفاته.

ونتوقف قليلاً أمام دعائه الأخير، فهو دعاء عجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته.

ونجد عظمة فراسته ۖ يوم يقول: «فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَصَّعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ»، ومن كان يدرك من الأمة أن هذه هي الحرب الأخيرة بين رسول الله ۖ وقريش، وقريش تقارع أبواب المدينة بعشرة آلاف مقاتل هي وحلفاؤها، لكنه يدرك بسعة أفقه، وبُعد نظره، أن هذه هي آخر محاولة لقريش فهي أعجز أن تفعل بعد الآن أكثر مما فعلته.

وهو المعنى الذي حدده رسول الله ﷺ فيما بعد: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسنند أحمد ٣٠/٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ١٨٤/٤٥ رقم ٢٧٢٠٦].

إنه القائد العظيم الذي يستشف بالبصيرة النافذة التي أعطاه الله إياها حجب الغيب وهو يدرس سنن النصر والهزيمة في الأمم: «وَلَا تُمِيتُنِي حَتَّى تُقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ». فهناك هدف آخر يرجوه من ربه قبل أن ينتقل من هذا العالم، هو أن يشتفي من بني قريظة حلفاء الأُمس غدار اليوم وأعداء اليوم، إنه يعزم على ربه.

وكما نراه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السماوات والأرض، فقد شاءت إرادة المولى - تعالى - أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ ؓ. إنه لا يحرص كثيراً على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسؤولية، وتأدية الأمانة المناطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحرب، ووضعت الحرب بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدأ قطف الثمار للإسلام فلا ثمرة أشهى عنده من الشهادة «وَأِنْ كُنْتَ قَدْ وَصَّعْتَ الْحَرْبَ فَأَفْجُرَ هَذَا الْكَلِمَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهِ».

ومن تحتفل السماوات بمقدمه، ويهتز عرش الرحمن لاستقباله لا عجب أن تلبى مطالبه الثلاثة عند ربه، فهو حبيب إلى ربه ومقرَّب إليه، وأن الأوان لأن يرى بعينه مصرع بني قريظة، ويشهد انحسار المشركين خائنين يجرّون أذيال الهزيمة.

(٦) وبضدها تتميز الأشياء: وحكم رسول الله ﷺ سعدًا في بني قريظة، وجاءه بعض قومه يريدون أن يخفف الحكم عليهم، وأن يفعل معهم كما فعل عبد الله بن أبي مع بني قينقاع، وحسب بعض الأوس أن هذا الشرف لابن أبي عند الخزرج لا بد أن يُعامل سعد بن معاذ ؓ بمثله فينقذ حلفاءه، كما أنقذ ابن أبي حلفاءه، فراحوا يذكرون سعدًا ؓ بهذه المزية.

هذا الاتجاه كان عند بعض رجالات الأوس، وبعضهم مغموص عليه بالنفاق، وبعضهم يذكر الماضي كله، وينسى واقع نقضهم للعهد أو يتناساه، ولكن هؤلاء لم يكونوا مع سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير يوم مضوا إلى بني قريظة يذكرونهم بعهد رسول الله ﷺ - وهو أعظم العهود كلها - فقد قال سيدهم كعب: لا نرده أبدًا قد قطعته كما قطعت هذا القبال - لقبال نعله... ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام، وشتوا سعد بن عبادة ؓ شتمًا قبيحًا حتى أغضبوه... ولم يكونوا مع سعد بن معاذ ؓ يوم قال نباش بن قيس أحد قادتهم لسعد بن عبادة سيد الخزرج: عضضت بيطر أمك، ولم يكونوا مع سعد يوم قال له غزال بن سموأل: أكلت أير أبيك.

فسعد ﷺ إذ غدا أعظم ضراسته عند ربه: «وَلَا تُؤْمِنُنِي حَتَّى تُقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ»، فإذا أمر بني قريظة كله يلقي إليه، سواءً اختاره بنو قريظة ليحكم فيهم أو اختاره رسول الله ﷺ ليهدي بعض هذه النفسيات الأوسية، فكان جواب سعد الحاسم القاصم على هذا الرجاء كله من بعض أفراد قومه الذي يلحون عليه، كلمة واحدة خالدة: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

وعرف هؤلاء الأفراد على ضوء هذه الكلمة أن بني قريظة قد انتهوا، فنعمهم إلى قومهم، وكان هذا الحكم الذي وافق حكم رب السموات والأرض: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْفَعَةٍ».

لكن الأوس لم يكونوا في معظمهم على رأي طالبي العفو. قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَجَاءَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَالْحَبَّابُ بْنُ الْمُنْذِرِ - وهما من الخزرج - فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ الْأَوْسَ كَرِهَتْ قَتْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ لِمَكَانِ حَلْفِهِمْ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ (سيد الأوس): يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا كَرِهَهُ مِنَ الْأَوْسِ مَنْ فِيهِ خَيْرٌ، فَمَنْ كَرِهَهُ مِنَ الْأَوْسِ لَا أَرْضَاهُ اللَّهُ. فَقَامَ أَسِيدُ بْنُ حَضِيرٍ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تُبْقِيَنَّ دَارًا مِنْ دُورِ الْأَوْسِ إِلَّا فَرَقْتَهُمْ فِيهَا، فَمَنْ سَخِطَ ذَلِكَ فَلَا يُرْغَمُ اللَّهُ إِلَّا أَنْفَهُ، فَأَبْعَثْ إِلَى دَارِي أَوَّلِ دُورِهِمْ.

وإذا كان أمر الله انتهى بابن أبي فهو منهم: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة]. فأين انتهى الأمر بالعظيم الخالد سيد الأوس سعد ﷺ؟! تتابع الخطى معه إلى لحظاته الأخيرة، وقد أقر الله عينه بني قريظة، ووضع الحرب مع قريش.

(٧) ها هو سعد ﷺ يرى تحقق كل آماله لحظة واحدة، فقد أصدر حكمه، وشهد مصرع حلفاء الأوس أعداء اليوم، وها هو جرحه ينفجر، ويلقى الله شهيداً ويستجيب الله بقية دعائه، ويحيط الله وفاته بكرامات تشهد بفضله عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ.

(٨) وتحدثنا عائشة - رضوان الله عليها - عن واقع فقدان سعد ﷺ على الأمة المسلمة كلها فتقول: «مَا كَانَ أَحَدٌ أَشَدَّ فَقْدًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ أَوْ أَحَدِهِمَا مِنْ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ».

ولا عجب فعنده من المقومات والكفاءات، والقدرات والطاقات، ما لا يملكها إلا القليل القليل غيره، ولا شيء أعظم في تقدير هذه الكفاءات والطاقات من هذا الحكم النبوي العظيم من رسول الله ﷺ وهو يسمع بكاء أم سعد ﷺ تتحدث عن مآثره، فيقول ﷺ: «كُلُّ نَائِحَةٍ تَكْذِبُ إِلَّا نَائِحَةَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»، وفي رواية: «كُلُّ بَاكِئَةٍ مُكْثِرَةٌ إِلَّا أُمَّ سَعْدٍ، مَا قَالَتْ مِنْ خَيْرٍ فَلَمْ تَكْذِبْ».

ولا عجب أن تبكي أم سعد بن معاذ ﷺ، إذ كان سيد ولد آدم وصاحبه خير الأمة بعده بكوا سعدًا بكاءً مرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ - رضوان الله عليها -: فَحَضَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَتْ: فَوَالَّذِي

نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ بُكَاءَ عُمَرَ مِنْ بُكَاءِ أَبِي بَكْرٍ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿رَحْمَةً يَنْهَمُ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومع كل هذه المآثر والمحاسن لم ينح سعد ﷺ من ضمة القبر.
(٩) وأخيراً نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: أن هذه الشخصيات العظيمة، ما كان أن تبرز عبقريتها، ومواهبها الكامنة الكاملة بين يدي أعظم عظماء الأرض، محمد رسول الله ﷺ، وهي تمارس مسؤوليتها في جانب الجندية معظم الأحيان، فكثير من هذه النماذج التي لم يتح لها أن تتربع على مسؤولية الحكم، والقيادة في الأمة لتنفجر هذه الطاقات من خلالها، وقضت نحبا بين يدي قائدتها ﷺ.

الثانية: أن سعد بن معاذ ﷺ استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته ميتته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره، ويعني كذلك أن هذه السيادة الكبرى التي جعلت قومه يقولون فيه: أفضلنا رأياً، وأيمنا نقيبة، والتي لم تجعل في بيته رجلاً ولا امرأة إلا دخل في الإسلام تلك الليلة، أقول: إن هذه السيادة إنما كانت إذن في العشرينيات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تنفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات بقدمومه، واهتز عرش الرحمن فرحاً بوفاته، من دون خلق الله أجمعين.

كان سعد بن معاذ، رجلاً أبيض، طوالاً، جميلاً، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية، فرمى يوم الخندق سنة خمس من الهجرة، فمات من رميته تلك وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ودفن بالبقيع [سير أعلام النبلاء ١/ ٢٩٠]. [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٦٨-٧٨].

٣٠ - معاملة الإسلام الإنسانية لغير المسلمين:

يقول الشيخ عبيد: «عند توزيع الغنائم على المحاربين أصدر النبي ﷺ أمراً عاماً بأنه:

١ - لا يفرق بين أم وولدها.

٢ - لا يفرق بين أخ وأخيه مادام صغيرين.

٣ - سار هذا المبدأ من المبادئ الهامة التي يتمسك بها المسلمون إلى أن تقوم الساعة.

لما رواه الترمذي في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [الترمذي في السير (١٥٦٦)، وقال أبو عيسى: «وفي الباب عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، كَرَهُوا التَّفْرِيقَ بَيْنَ السَّيِّئِ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، وَبَيْنَ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ، وَبَيْنَ الْإِخْوَةِ»، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يَفْرُقُ بَيْنَ الْأُمِّ وَوَلَدِهَا حَتَّى يَلُغُوا»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا بَلَّوْهُمْ؟ قَالَ: «تَحِيضُ الْجَارِيَةِ وَتَحْتِلُمُ الْغُلَامِ».

ونتيجة هذه الأوامر النبوية كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قادة الجيوش الإسلامية في الشام والعراق وغير ذلك يقول: «لا تفرقوا بين الأخوين ولا بين الأم وولدها في البيع لأنه ذو رحم».

وقد حكم الإمام الشافعي بفساد بيع المفرق بينهما سواء كان المفرق بينهما بالبيع أخوين أو أمًا وولدها. هذه هي الشفقة في أحلى مقاماتها الإنسانية والرحمة بكل ما اشتملت عليه من حنان وعطف ورعاية. عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: وَهَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غُلَامَيْنِ أَخَوَيْنِ، فَبِعْتُ أَحَدَهُمَا، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَلِيُّ مَا فَعَلَ غُلَامُكَ؟»، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ ﷺ: «رُدَّهُ رُدَّهُ».

[الترمذي في البيوع (١٢٨٤)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمُ التَّفْرِيقَ بَيْنَ السَّبْيِ فِي الْبَيْعِ، وَكَرِهَ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، وَبَيْنَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَبَيْنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ فِي الْبَيْعِ، وَرَخَّصَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُؤَلَّدَاتِ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ، وَرَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فِي الْبَيْعِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ اسْتَأْذَنْتُهَا بِذَلِكَ فَرَضِيتُ». وقال الشيخ الألباني: ضعيف]. [غزوة الأحزاب لعبيد ٧٥].

٣١ - الإحسان إلى الأسرى خلق إسلامي:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يحرم على أتباعه أن يمثّلوا بالأسير، أو يعذبوه، وحتى لو حُكِمَ بقتله، فينبغي أن ترهق روحه بأسرع وقت ممكن دون تعذيب، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلِئِذَا أَحَدُكُمْ شَفَرْتُهُ فَلْيُرْخْ ذَيْبَتَهُ». [مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٥٥)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)].

والإحسان إلى الأسير بمعاملته معاملة حسنة، فلا يُعَذَّب ولا يُجَاع ولا يُمنَع عنه الماء، بل يُقدَّم له الغذاء والماء وما يحتاج.

هذه معاملة الأسير في الإسلام، ومن المؤسف حقًا أن يكون في بعض السجون في البلاد الإسلامية دعاة إلى الله يُمنعون الطعام والشراب أيامًا في وقت شديد الحر، ويُقدَّم للمجموعة من الرجال كأس واحد من الماء كل أربع وعشرين ساعة، وكل ذلك مصحوب بالتعذيب من جلد وركل بالأرجل وكي بالنار وكسر للعظام وختق للأحياء، وإهالة التراب على الأحياء، وإلقاء الفضلات عليهم حتى يموتوا من الرائحة النتنة موتًا بطيئًا، فيه من الآلام ما فيه.

هذه هي الحضارة، وهذا هو التقدم في القرن العشرين.

أقول: أيها المسؤولون، هَبُوا هَؤُلَاءِ الدعاة أسرى وعاملوهم كمعاملة الأسرى في الإسلام إن كنتم مسلمين، أو معاملة الأسرى في القوانين الوضعية.

إن من عنده أثارة من إيمان أو عقل يذوب قلبه كمداً لما يسمع من أحوال المسلمين في بلاد المسلمين.

لِيُمَثِّلَ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٠١/٢-١٠٢].

٣٢ - الإسلام يُكرِّم المرأة ويعتبر شفاعتها:

يقول د/ أبو فارس: «هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير، تأمل هذه المرأة التي جاءت تشفع لرفاعة بن سموأل وقد لاذ بها، وكان يعرفها، فجاءت رسول الله ﷺ تقول له: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! يَا أَبِي أُمِّي، هَبْ لِي رِفَاعَةَ، فَيَهَبُ لها، فتنجيه من الموت.

وهكذا ينبغي أن يحرص القائد على اعتبار جنده، وتحقيق رغباتهم، فإن هذا يولد المحبة والثقة بين القائد وجنده، شريطة ألا يؤدي ذلك إلى الإضرار بالمصلحة العامة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٦/٢].

٣٣ - المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله:

يقول د/ أبو فارس: «كم بذل حيي بن أخطب من جهد ومال لمعاداة رسول الله ﷺ، والصد عن الإسلام، فباءت محاولاته وهو في المدينة بالفشل، فلم يتعظ ويعتبر، فألب القبائل العربية واليهودية على قتله ﷺ وتدمير دولته فلم يفلح، وأقنع بني قريظة بضرورة نفض العهد مع الرسول ﷺ وطعنه من الخلف، فجعل الله كيده في نحره وكتبته، وفي النهاية قادت محاولاته إلى حتفه.

إن الله لا يهمل الظالمين، ولكنه يمهلهم، ويستدرجهم، حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فكان أخذه أليماً شديداً، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي لِلظَّالِمِ (معنى يملئ يمهله ويؤخر ويطيل له في المدة وهو مشتق من الملوء وهي المدة والزمان، بضم الميم وفتحها وكسرها)، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» (أي لم يطلقه ولم يفلت منه، قال أهل اللغة: يقال: أفلته أطلقه وانفلت تخلص منه)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود]. [مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)].

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٢/٢].

٣٤ - عداوة عمياء حاكمة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حمل حيي بن أخطب في حنايا ضلوعه قلباً حاقداً لا يعرف الخير إليه سبيلاً، قد أغلق قلبه عن كل نور، هو يعلم أن محمداً رسول الله، ولكنه منذ أن قامت لديه الحجة على رسالته عاداه وقال حبيباً على سؤال أخيه ياسر بعد أن رآه، ورأى أماراته في التوراة: عداوته ما حييت.

وظلت هذه العداوة تزداد رغم عفو رسول الله ﷺ وتجاوزة عن سيئاتهم، فلم يتعظ ولم يعتبر.

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٣/٢].

٣٥ - التجلد في موطن الشدة:

يقول د/ أبو فارس: « لقد تجلد حيي وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أورد لها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالائتم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنه يعبد هواه، ولم يعبد ربه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].
[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٣/٢].

٣٦ - قد يموت أهل الباطل دفاعاً عن باطلهم:

يقول د/ أبو فارس: « إن المبادئ سواء كانت صحيحة أو فاسدة فإن الذي يحملها ويتحمل من جراء ذلك الألم والتعب هم الرجال الأشداء، وهم الذين يستحقون حمل المبادئ لأنهم يضحون من أجلها. أما ضعاف الناس، ضعاف القلوب، ضعاف النفوس، ضعاف الهمم، خائرو العزائم فلا يصلحون لحمل المبادئ سواء كانت صحيحة أو فاسدة.
وإذا كان أهل الباطل يضحون من أجل باطلهم، ويذبلون بسخاء من أجل نصرة هذا الباطل، فأولى بأهل الحق وسدنته أن يذبلوا كل ما يملكون في سبيل حقهم، وأولى بهم أن يثبتوا على هذا الحق، ويحملوه للأجيال». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٣/٢].

«والحق أن مشركي قريش ومن رجال يهود أناس واجهوا الموت بثبات.

ولن تعد المبادئ الباطلة والنحل الهائلة أتباعاً يفتدونها بالأرواح والأموال، غير أن شيئاً من هذا لا يجعل الباطل حقاً ولا الجور عدلاً». [فقه السيرة للغزالي ٣٢٧].

٣٧ - من يخذل الله يُخَذَّل:

يقول د/ أبو فارس: « هذا ما نطق به حيي، نطق به لسانه، فدل على ما في جَنَانِهِ في هذا الوقت العصيب.

وإنه عَرَّ صراحة أن الله لم يكن معه يوماً من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدواً للأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومُسلمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، والله تبارك وتعالى إذا تخلى عن شرير فلا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره، وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأن إرادة الله هي النافذة، وقدره هو الكائن، لا راد لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام].

نعم إن الله إذا خذل أحداً فليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَخْذُكُمُ فَمنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟﴾ [آل عمران: ١٦٠]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٤/٢].

٣٨ - الحسد اليهودي للرسول ﷺ:

عداوة حيي للرسول ﷺ ليست مبنية على فكر سليم، ولا عقيدة صائبة وإنما هو الحسد؛ لأنه ﷺ من غير اليهود. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٤/٢].

٣٩ - قول حيي: ملحمة كتبت على بني إسرائيل:

يقول د/ أبو فارس: «إن هذه الملحمة كانت بسبب من زعمائهم؛ لأنهم لم ينصحوا لأقوامهم، ولم يتبعوا الحق، بل صدوا عنه، وقاوموا أهله، إن هذه الملحمة حدثت لهم لأنهم نقضوا العهود، ونكثوا الموثيق، وخافوا وغدروا، وتخلوا عن كل القيم النبيلة، وصفات المروءة، إن هذه الملحمة حدثت لهم يوم أن أجمعوا واجتمعوا مع غيرهم على قتل الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، ويوم أن قرروا ذبح المسلمين رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً.

فهم مسؤولون مسؤولية كاملة عن هذه الملحمة التي حلت بهم، وعن هذه المذبحة التي ذبح فيها رجالهم، وهذه الملحمة التي سببت فيها نساؤهم وذرارهم، إنهم مسؤولون عن هذا كله، وجاء وقت الجزاء العادل، وضربت الأعناق، وهال رسول الله ﷺ التراب، دفنوا لجثثهم، ولذكراهم، ولمكرهم، ولغدرهم، ولحيانتهم، حتى يخلص الناس من شرهم». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٤-١١٥].

٤٠ - ما يستفاد من مقتل كعب بن أسد:

(أ) لقد علم بصدق رسالة النبي ﷺ ولكنه لم يؤمن، فأخذته العزة بالإثم، حيث حرم نفسه نعمة الإيمان والنجاة في الدنيا والآخرة.

(ب) إن كعب بن أسد كان متعصباً ليهوديته، وهو يعلم بطلانها.

(ج) إن كعب بن أسد لم يدخل الإسلام خوفاً من أن تعيره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم الإيمان وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه وتعييره، وهذا العمر الحق هو السفه والحمق يعينه». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٥/٢].

٤١ - ما يستفاد من قصة الزبير بن باطا:

(أ) الإسلام يشجع المسلم على أن يُحسن لمن أحسن إليه، ويكافئه على صنيعه، وهكذا شجع رسول الله ﷺ ثابت بن قيس حينما عرض عليه مكافأة الزبير ليد له عليه في الجاهلية، فاستجاب رسول الله ﷺ لكل الطلبات التي طلبها ثابت ﷺ.

(ب) لقد أكرم رسول الله ﷺ الزبير بن باطا إكراماً لثابته ﷺ فوهب له دمه وماله وأهله.

(ج) إن الزبير لم يؤثر فيه هذا الإحسان من رسول الله ﷺ؛ لأنه يهودي حاقد، قلبه يقطر حقداً وحسداً، لا يؤثر فيه شيء، وإن كانت القلوب النظيفة من الحقد والحسد تحب من أحسن إليها، وتقترب منه، وتتودد له.

(د) اليهود خالدون في النار لأنهم كفار لم يؤمنوا برسالة الرسول ﷺ ولم يعتنقوا الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران]. ولقد أخبر أبو بكر ؓ أن الزبير سيلقى أحبته من يهود بني قريظة في نار جهنم، حيث العذاب الخالد، والتعذيب الشديد». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٥/٢-١١٦].

٤٢ - الإسلام يشجع المسلم على أن يحسن لمن أحسن إليه، ويكافئه على صنيعه: وهكذا شجع رسول الله ﷺ ثابت بن قيس ؓ حينما عرض عليه مكافأة الزبير ليُد له عليه في الجاهلية، فاستجاب رسول الله ﷺ لكل الطلبات التي طلبها ثابت ؓ. ولقد أكرم رسول الله ﷺ الزبير بن باطا إكرامًا لثابت ؓ فوهب له دمه وماله وأهله. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٥/٢-١١٦].

٤٣ - احترام آدمية الإنسان:

يقول د/ الغضبان: «إن هذا الحكم العادل على بني قريظة، لم يكن غضبًا لنفس أو إهانة لآدمية، فلقد حرص رسول الله ﷺ على أن لا يكون التشفي والتأثر هو الذي يسيطر على الموقف: أَيْ يَنْبَاشِ بْنِ قَيْسٍ، وَقَدْ جَابَذَ الَّذِي جَاءَ بِهِ حَتَّى قَاتَلَهُ فَدَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ أَنْفَهُ فَأَرْعَفَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلَّذِي جَاءَ بِهِ: «لَمْ صَنَعْتَ بِهِ هَذَا؟ أَمَا كَانَ فِي السِّيفِ كِفَايَةٌ؟» ... ثم قال ﷺ: «أَحْسِنُوا إِسَارَهُمْ وَقَبِّلُوهُمْ وَأَسْقُوهُمْ حَتَّى يُرِدُّوا، فَتَقَبَّلُوا مَنْ بَقِيَ، لَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السَّلَاحِ - وَكَانَ يَوْمًا صَافِيًا - فَقَبِّلُوهُمْ وَأَسْقُوهُمْ وَأَطْعِمُوهُمْ»، فَلَمَّا أَبْرَدُوا رَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْتُلُ مَنْ بَقِيَ. [الغازي للواقدي ٥١٤/٢].

إنها عظمة النبوة التي تحترم آدمية الإنسان، ولو كان يهوديًا، حُكِّمَ الله تعالى به القتل، واليوم وفي أقبية سجون مَنْ يُسمون بـ(المسلمين) من المآسي وفنون التعذيب والتجويع والإهانة والسحق ما يشيب من هوله الولدان، والأصل هو إهانة كرامة الإنسان وتمريغه بالتراب، وتجريعه غصص العذاب الذي يترفع عنه الوحوش، وكما يقول سيد قطب رحمه الله: إن الوحوش تأكل لتقتات، أما هؤلاء فيتلذذون بالعذاب، ويبقى الإسلام الذي يكرم الإنسان بصفته إنسانًا، فيعاقبه بما يستحق دون شهوة غضب وحقد وتشفٍّ تنيله أكثر مما يستحق». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣١٣/٢-٣١٤].

٤٤ - حياة المؤمن مقرونة بالكفاح:

يقول الشيخ أبو خوات: «كان كعب بن أسد القرظي وادع النبي ﷺ وعاهده، ودخل النبي ﷺ المعركة وهو واضع هذا العهد موضعه من الوفاء، ولكن حيي بن أخطب فتنه عن عهده واستماله إلى أعداء الرسول ﷺ فمال وصار مع قومه في صفوف الأحزاب، مما كان له أبلغ الأثر في كرب المسلمين وشدة الأمر عليهم من أمامهم ومن خلفهم.

ومما أدى إلى استئصال شأفتهم بعد انتهاء غزوة الخندق ليستريح المسلمون من كيد اليهود لهم بالمدينة، وإلى أن يخلو الجو للمسلمين وحدهم، وذلك من تدبير الله حتى لا تكون راحة إلا بعد جهاد، وحتى يعرف المسلمون أن حياتهم مقرونة بالكفاح فإن هم فتروا وألقوا أحماهم على غيرهم ذلوا وهانوا وتعلقوا بالدنيا وأحبوا الحياة، ومتى أحب الأحياء الحياة كرهوا الجهاد واستمر أوا السلامة ولو على بساط الذل.

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨٨-٨٩].

٤٥ - العقوبة المتوقعة:

يقول أ/ الشامي: «إن السلوك الشائن الذي انتهجه بنو قريظة، هو الذي أوردتهم مورد الهلاك، ولو تم لهم ما أرادوا لكان المسلمون في مثل موقفهم أو أسوأ منه.

إنهم غدروا في موطن يوجب عليهم النصر للمسلمين بموجب العهد الذي بينهم، ولما ذهب إليهم وفد رسول الله ﷺ يذكرهم العهد، أنكروا معرفتهم برسول الله ﷺ وشتموا أفراد الوفد وتنكروا لهم.

إن العقوبة كانت متوقعة، وإن لم يصرح بها صاحب الحق في ذلك، وهذا ما جعل أبا لبابة ؓ يشير إلى حلقة، وهو نفسه الذي جعل الأوس يتواثبون إلى رسول الله ﷺ يطلبون حسن معاملة مواليتهم، وهو نفسه الذي عرفه الذين كانوا يُقنعون سعدًا ؓ وهو في طريقه إلى رسول الله ﷺ أن يحسن إلى مواليتهم، فقال: لَقَدْ أَنْ لَسَعِدٌ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، فرجع بعضهم إلى المدينة يعني بني قريظة، ولم يكن سعد ؓ قد أصدر حكمه.

إنها بدهية عقلية، إنه لا يلام القاتل في ميدان المعركة؛ لأنه إن لم يكن القاتل فهو المقتول.

إن بني قريظة نزلوا إلى الميدان ظالمين معتدين فألقوا بأيديهم إلى التهلكة، وقد عرفوا هذه النتيجة، وإلا فلم كان بكاء النساء والصبيان في وجه أبي لبابة ؓ.

وقدياً قالت العرب: على نفسها جنت براقش». [من معين السيرة للشامي ٣٢٣-٣٢٤].

٤٦ - حديث الزور:

يقول د/ حيشي: «من الأشياء التي تنسب إلى اليهود قدمائهم ومحدثيهم، ولا تخطئهم، أنهم يقلبون الحق زوراً، والزور حقاً حين يؤرخون للأحداث، أو يتصدى بعضهم لكتابة التاريخ.

والشيء من معدنه لا يُستغرب ولا ينكر، لكن الشيء المستغرب المنكر أن يوافقهم على زورهم أناس ليسوا منهم، ولا تربطهم بهم صلة.

والذي أقصده أن إسرائيل ولفنسون وهو يتحدث عن اليهود في بلاد العرب من خلال أطروحة أو بحث، تقدم به إلى نيل درجة علمية، وأشرف عليه عميد الأدب العربي د/ طه حسين، قد تحدثت عن فعلة اليهود من بني قريظة، وعما صنع حيي من تأليب العرب على النبي ﷺ، ودفع بني قريظة إلى الخيانة، والثورة، ونبد العهد إلى النبي ﷺ والمسلمين في وقت عصيب، فمجد حيي بن أخطب ورفعته إلى مرتبة

البطولة النادرة، وبرر له صنيعه وصنيع إخوانه، وجعل فعلته هذه قاعدة في الحروب، لا يغص بها إلا كل مارق، ولا يزهّد فيها إلا كل جاهل.

أما حين أراد المسلمون أن يتقموا لأنفسهم، وأن ينالوا من عدوهم بعد أن أمكنهم الله منهم، فإنه تطوع بالحكم على المسلمين - وسعد ﷺ أولهم - بأنهم خونة سيؤو الخلق، قليلو النخوة دون أن يقدم بين يدي أحكامه بمسوغ واحد.

وأنت خير كما قلت أن هذا كله ليس بغريب على خلائق اليهود، لا يخطئ سجاياهم ولا تخطئه، وإنما الغريب المنكر هو أن يوافق المشرف على هذا البحث، وأن توافق اللجنة التي حكمت على هذا البحث. إلى التزوير مرة أخرى: وقبل أن نبرح هذا المكان من البحث، أحب أن أعرض عليك لوّنًا آخر من التزوير هو قريب من الأول والكل من نسق واحد.

وهذا اللون الجديد من التزوير هو ما قاله اليهودي إسرائيل ولفنسون في بحثه السابق، من أن المدينة المنورة قد أصبحت بعد اليهود خرابًا، وباتت مجموعة من التلال، الأرض فيها قد أصبحت سبخة، والصناعة التي كانت نشطة قد اختفت، ولولا أن المدينة تمتاز بلون من الجذب الديني لاختمت من الخريطة، واتسعت بها رقعة الصحراء. وكلام كثير هذا معناه.

والذي يقرأ التاريخ ويقف على سير الصحابة، يجد أن المدينة لم يختف منها شيء سوى صناعة السلاح، وهو لون من الحدادة كان اليهود قد فتحوا له سوقًا في المدينة، حين أشعلوا نار العداوة والبغضاء بين أبناء العمومة من الأوس والخزرج.

ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن صناعة الحدادة التي أنشئت في بلاد العرب لصنع السلاح قد اختفت اختفاءً تامًا، واعتمد العرب في تسليح أنفسهم على صناعات أجنبية أم لا.

لكن الذي يقبله المنطق هو أن يكون العرب قد اهتموا بهذه الصناعة في بلادهم، وإن كانوا لا يبارسونها بأنفسهم، حيث إن رجالهم وشبابهم كانوا قد تفرغوا للفتوحات في الإسلام، وتفرغوا للحروب التي أثارها الإحن، والتي كان اليهود سببًا فيها قبل الإسلام.

ويبقى ادعاء إسرائيل ولفنسون كسابقه، ادعاء ليس له ما يسانده من الحيشات أو الصادق من المقدمات.

هذا ولقد حكى الكاتب عن أستاذه د/ طه حسين أنه قد قبل منه الدعوة، وارتضى أن تكون المدينة قد تأخرت، وإن كان قد استحيا أن يقبل منه أن يكون غياب اليهود هو السبب في تأخرها.

ما أشبه الليلة بالبارحة!! فإننا لنجد اليوم من يقومون على قدم وساق يساعدونهم إعلام قوي، وضخ الأموال من الخارج بغير حدود داخل أرض اليهود، ومحاولة إضعاف المسلمين أمام اليهود.

إننا لنجد اليوم من يقومون على قدم وساق ويقولون: لولا اليهود في هذه المنطقة من العالم لتحولت إلى خراب.

وقد سبقت هذه الدعوة دعوة أخرى فيها أن اليهود قد استلموا هذه المنطقة من العالم ليس فيها بشر، وليس فيها زرع ولا ثمر، ولا هي بقادرة على ذلك إلا بيد اليهود، الأمر الذي دفع أحد الكتاب المعاصرين إلى إخراج سلسلة من الكتب، منها الصغير في الحجم، ومنها الكبير، وفي كلها تجد الحقيقة ناصعة بوثائقها وأدلتها [ينظر في هذا كله: تاريخ اليهود في بلاد العرب لولفنسون ١٥٢-١٥٤، وينظر معه كتب روجيه جارودي ذات الصلة من نحو: ملف إسرائيل، وفلسطين أرض الرسالات، وغيرهما].

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٥١-١٥٤].

٤٧ - الجانحون إلى تضعيف روايات عقوبة بني قريظة:

يقول د/ العمري: «وقد جنح بعض المؤرخين المعاصرين إلى نفي الروايات المتعلقة بالعقوبات التي واجهتها بنو قريظة وتضعيفها، بزعم أن إثباتها يجرح المشاعر الإنسانية ويخدم الدعاية الصهيونية.

[ينظر: بحث د/ وليد عرفات ضمن بحوث مؤثر السيرة العالمي بقطر].

وليس الأمر كذلك فإن أوثق المصادر الإسلامية قد أثبتت وقوع ذلك، ولم تكن العقوبة الشديدة إلا جزاء للخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة عندما غدرت بالمسلمين وتبرأت من حلفهم بدل أن تشارك معهم في الدفاع عن المدينة بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين.

وما زالت الدول تحكم بقتل الخونة المتواطئين مع الأعداء حتى في الوقت الحاضر.

وكان جزاء بني قريظة من جنس عملهم حين عرّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، وأمواهم للنهب، ونساءهم وذرايرهم للسي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً، فليس من داع للتنصل من حقائق التاريخ وتكذيب الروايات الصحيحة». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣١٧].

وأقول: قد سبق هذا المؤرخ كاتب آخر في تفصيل القول في رد أكثر روايات غزوة بني قريظة، وليس روايات العقوبة فقط، وهو د/ بركات أحمد في كتابه (محمد ﷺ) واليهود: نظرة جديدة) ص ١٣٢-١٦٠، وكفينا هذا الرد الموجز للدكتور العمري ببارك الله فيه.